تشاو روبرتا

مجموعة قصصية

غالية قبّاني

سلسلة آفاق عربية

116

تشـــاو روبرتـــا

مجموعة قصصية

غالية قبانى

لوجو
الهيئة المربع

سلسلة
آفاق عربية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
الإشراف العام
جمال العسكرى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• تشاو روبرتا
• غالية قبانى
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2009 م
184ص. 5ر13 × 5ر19 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية: سوزان عبد العال
• رقم الإيداع: ٧١٩٦/ ٢٠٠٩
• الترقيم الدولى: 978-977-479-125-1
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

116
سلسلة شهرية تعنى بنشر أعمال الأدباء العرب

• هيئة التحرير •
رئيس التحرير
إبراهيم أصلان
مدير التحرير
لبنى الطماوى

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

تشاو روبرتا

إهـــــداء

إلى جدتى.. نانا رشيدة..
منبع الحكايا الذى صبَ فىّ ...

تقلبات الست سميحة

بدأت القصة من النهاية، في مساء يوم صيفي لطيف قدمت فيه آخر المفاجآت قريبتنا سميحة، المرأة التي لا تكف عن إدهاشنا بأفعالها، فتبقينا في حسد لخبرات عديدة لم نتحصّل عليها في الحياة بسبب من رغد العيش الذي درجنا عليه، واعتمادنا على خدمات الآخرين بعد أن نسينا كيف ننجز الأعمال بأنفسنا.

وسميحة، ليست قريبتنا بالمعنى المباشر للكلمة، بل هي زوجة ابن عم لنا، "من الفرع الفقير للعائلة"، هذا ما ترددده هي نفسها وتضيف: "أخ عاش في الإمارات، وآخر كان مقاولا، وثالث مالك محلات ألبسة نسائية. لم يتبق غير فرعنا الذي حبس في الحارة القديمة". تقولها بين المزاح والجد، فتذكر سامعها بمصير غير عادل أصاب الأخ الأكبر وأورثه لأبنائه من بعده. لكن هؤلاء الأبناء، لم

يكن بينهم من تزوج واحدة مثل سميحة، "فهيّمة" وتجيد الحصول على حقوقها العائلية بالمصاهرة، باستثناء هاشم الذي خطب فتاة من حي قريب تصغره بسبع عشرة سنة اسمها سميحة، انجذبت لوسامة الموظف البسيط وهي لا تزال على عتبات ما يحسب على سن المراهقة.

بعد زواج ابن عمنا هاشم، لاحظت العروس الجديدة الجفوة والجفاء في قلوب الأقارب. وهما سمتان ربما وقف خلفهما تفاوت في فرص الحياة، فلم ينتم كل طرف إلى طبقتين مختلفتين فحسب، بل أيضا إلى جغرافيا مختلفة داخل مدينة حلب، تتمثل في الحي الذي يسكنه كل فرع ويرمز إلى مستواه الاجتماعي.

بعد اطلاعها على الحقيقة التي تقسم عائلتنا طبقيا قررت الوافدة الجديدة إحداث تغيير خطير في سيكولوجية المكان، أو سيكولوجية البيت الذي كانت تشاركها فيه "سلفتها"، زوجة الشقيق الأوسط لزوجها. بادرت سميحة إلى وصل ما قطع بين أبناء العمومة، متحينة المناسبات الكثيرة للقيام بالواجب الاجتماعي: أحزان وأفراح الأقارب وواجبات عائلية أخرى أعادت سميحة روتينها إلى البيت العتيق، فاستدرجت الفروع الأخرى من العائلة لمشاعر لفها الصدأ زمنا طويلا. وكان أن بدأنا في التردد على المكان الذي نشأ فيه آباؤنا، بيت جدنا في حي باب النصر.

"هذا الحوش يعبق برائحة الأصالة. بيت حلبي أصيل".

قالها مرة صوت راح يتأمل أشجار ثمرة الكباد والنارنج

والأكدنيا. وأكملت بقية العيون جولتها على الليوان المرتفع قليلا عن أرض الدار بجلسته التي تشرح الصدر أمام باحة تنتصف فيها بركة ماء وأصص زرع لا تعد، ولم تنس النظرات أن تجوس الأفاريز المزخرفة بالنقوش والكتابات العربية والآيات القرآنية أعلى جدران البيت الذي يفتخر بعمر تجاوز المائة سنة.

"حسدوا الأقرع على قرعته"!.

علقت سميحة بسرعة مستعينة بواحد من الأمثلة الشعبية الحلبية وما أكثر ما تجيد استحضارها في الوقت المناسب لتمرر تعليقاتها بدلا من طرحها مباشرة، مثبتة أنها من سلالة أصيلة لشعب هذه المدينة العريقة التي طورت عبر تاريخها الطويل أسلوب حوار يتفادى الصدام قدر الإمكان بالآخر. أكملت سميحة وهي تشد من عقد الإيشارب الأسود حول رقبتها: "الحكومة قالت لنا إن هذا البيت أثري ومنعتنا من بيعه". نطقتها بتحّسر، وأردفت تقول بصوت ضاحك جاهدت أن تخفي رجفة اللوعة فيه: "وما يفيدنا تقرير إدارة الآثار، هل نفتح البيت للزوار ونأخذ مائتي ليرة على الزيارة؟" إلا أن زوجها، هاشم، الذي بالكاد يتدخل في أي نقاش، علق بصوته الخفيض المعتاد "الصيت ولا الغنى يا مرتي!".

حمل تعليقه المحمل بمثل حلبي آخر تنبيها للأقارب الحاسدين العائلة على نعمة المكان العتيق، بأن الأصالة التي يفاخرون بها من خلال بيت جدهم، ليست في النهاية إلا برهانا على فقر أحد الفروع. تلقفت سميحة الإشارة ورددتها إلى السامعين: "نادرا ما

يبقى في الحارة من ينعم الله عليهم، كلهم يبيعون هنا أو يؤجرون المكان إن كان ضمن المخطط، ويسكنون في الأحياء المرتبة إن لم يتمكنوا من الشراء في الأحياء الأرقى" . قالتها وهي ترمق كل من تحلق من أفراد العائلة حول نافورة المياه يرتشف القهوة اللذيذة التي تجيد تحضيرها .

من خلال علاقتها مع نساء عائلة زوجها، أبدت سميحة خبرة مدهشة في تسيير شؤون الحياة اليومية، لم يكن بالإمكان التكهن متى وكيف حصلت عليها وهي الشابة التي تزوجت ابن عمنا الوسيم الفقير في عمر لم يتجاوز الثامنة عشرة! كل المشاكل اليومية لها مخرج عندها: تعرف كيفية الوصول لمن يشترى الأغراض المستعملة، وأين يمكن العثورعلى أقرب ندّاف ومنجّد للفرش، ويمكن أن تكون وسيطا لتأمين خادمة موثوق بها ونشيطة في الوقت نفسه، إضافة إلى مطالب أخرى كثيرة لا تنتهي وأمور يصعب على سكان الأحياء الحديثة إنجازها من دون دليل خبير في العالم السفلي، أي العالم الذي يقل عنهم مستوى. قالت أمي مرة وهي تمط ذراعها من ألم الكتف، إن الأدوية لم تعد تفيدها كمسكن. بعد يومين، كانت سميحة تصطحبها إلى حي "الجلّوم" العتيد حيث لا تزال تعيش هناك امرأة شهيرة في "التمسيد" أو المساج حسب المصطلحات الرائجة اليوم.

"بسملت المرأة وكبّست يديها بقوة على ظهري وكتفيّ، لا يصدق المرء أبدا أنها يدي عجوز" . هكذا وصفت أمي وضعها بعد

عدة جلسات، ونذرت لسميحة خاتما من الذهب، مكافأة وامتناناً على هذه الخدمة.

دخلت هذه الكنّة حياة العائلة وبقى زوجها-ابن عمنا- هامشيا فيها، فتعامل معهما الأقارب بقلب الأدوار، كأن هاشم هو الصهر وهي قريبة الدم. إزداد الطلب عليها من نساء العائلة كل بحسب حاجته: المساعدة في أصناف الكبّة الحلبية، أو لف ورق العنب، الحضور إلى الاستقبالات النسائية أو ولائم الطعام كي تكون اليد اليمنى لصاحبة البيت، ومطالب لا تنتهي لعائلات اكتشفت في سميحة خبرة يومية متوجة بعلاقة القرابة وخفة الظل. "وهي الأولى بالصدقة والزكاة!" . ردد البعض من كبار العائلة، إذ لن ينسوا أنها في النهاية تظل أقل شأنا ومستوى وتستحق قبل غيرها الحصول على نتاج التزاماتهم الدينية، حتى وهي تدل العرسان على بعض بناتهم فتريح قلوب الأهل القلقة من احتمالات العنوسة. سميحة أيضا كانت تحصل لها ولأفراد أسرتها على الثياب التي ملّ منها أصحابها ولا تزال جديدة تضفي البهجة على لابسها الجديد. لكنها أبدا لا ترتدي هي شخصيا قطعة ملابس من دون إضافات جديدة تمنحها بصمتها الخاصة، فلا تكاد عين تلحظها بسهولة كثياب مستعملة .

في بداية صيف قبل سنتين، أقامت إحدى زوجات العم حفل خطوبة لابنتها في شقتهم الفارهة بحي الشهباء الراقي. كانت سميحة بالضرورة بين المدعوات، إن لم يكن من أجل المساعدة في

تقديم ضيافة الحفل من جاتوه وبوظة قيمق عربية وشيكولاته فاخرة، فعلى الأقل لأنها كانت الواسطة في هذه الخطوبة. "أم العريس جارتنا، ابنها مهندس يعمل في السعودية والله فاتح عليه. كانت تبحث عن عروس من عائلة معروفة تسكن في منطقة مرتبة، فأحضرتها إلى هنا وحصل النصيب". همست سميحة بسرعة وهي توزع شراب اللوز، غامزة بعينها ناحية طقم الصالون المذهّب الفاخر، والتحف التي تتوزع في الزوايا، بينما كانت المرأة المعنية، أم العريس، تنظر بهيام ناحية كنة المستقبل المتوسطة الجمال غير مصدقة موافقة عائلتها على مصاهرتهم.

مرّت نحو ساعة على تجمع النساء المدعوات إلى حفل الخطوبة ولم يتخلل الجلسة أي ضجيج للفرح. انتظرت قريبات كل من العروسين بادرة من الطرف الآخر تشجع على الرقص أو الغناء. طرف لا يريد أن يظهر كمن فقد توازنه لمشروع زواج ابنته التي اقتربت بسني عمرها من الثلاثين، وطرف آخر لا يعرف إن كان الضجيج لائقا في أفراح الأكابر!

حلتها سميحة. دبرت آلة عود من الجيران وبدأت تشد خيوطه وترخيها مجرّبة نغماته. علت همهمة من قبل بعض الضيفات تنم عن دهشة واستغراب "كمان سميحة بتفهم بالعود!" وقالت إحدى المدعوات ضاحكة "والله يا سميحة أنت متل طاسة الجن".

لكن سميحة لم تعلق، منشغلة كانت في عودها الذي حضنته بلهفة، حتى صدح صوتها مع نضج الأوتار. أما الحوارات التي رأت

في دندنتها تغطية صوتية لنميمة وأخبار شخصية، فلم تتوقف عن الحكي. سميحة هي التي توقفت فجأة عن الغناء ليعلو احتجاجها فوق الغمغمة، حادا معنّفا: "رجاءً سماع.. وشوية احترام لمن يغني".

قالت ذلك وصمتت. لم تبتسم كعادتها فتمنح من حولها الإحساس بإمكانية التسلل إليها بتعليقات ساخرة. كانت حازمة غاضبة تدافع عن حضور صوتها مثل أي ممتهنة للغناء. ساد وجوم على وجوه الحاضرات، لم يكن غضبا، وإنما دهشة المفاجأة من امرأة مثل سميحة تفرض عليهن سماع غنائها، ففعلن.

عادت حنجرتها تدندن حتى صدحت بأغان تتطلب قوة في الصوت والأداء، فدندنت معها بعض الحاضرات، وصفقت أياد أخرى طربا، وشارك نسيم الصيف ليلتها في توزيع صوتها إلى الجوار عبر تموج الستائر التي أسدلت صداً لأعين الفضوليين في الأبنية القريبة. تماهت سميحة مع حالة الطرب وغابت في عالم يخصها هي وحدها لم يكن مكشوفا لغالبية الحاضرات من قبل. وعندما رفعت الصوت عاليا صافيا في أغنية "آمنت بالله" للوردكاش، كأنما راحت ملامحها تتشكل من جديد، احمرت بشرة الوجه والعنق وانتشر اللون إلى فسحة الصدر الواسعة للثوب الأسود. بدت في ذلك اليوم أجمل من قبل، عيون واثقة من موهبتها، وقدرات تتجاوز مجرد الشطارة للأعمال اليومية التافهة. انطباع ثبّت في أذهان الحاضرات الصورة الجديدة لقريبتنا سميحة، ذات الأداء الشجي الذي شده كثيرات في مدينة تعشق

الطرب وتحترم صنّاعه، نساء، ممن رحن إذا رغبن بمخاطبتها بعد ذلك في الحفل، عليهن تدبيج خطابهن لها باللقب الجديد "يا ست سميحة"، اللقب الذي سيلتصق بها للأبد بعد ذلك في أوساط العائلة.

لندن 1998

تشاو روبرتا

لم يتخيل ادوارد ستيفنسون أن يكون هذا المكان، (بحيرة غاردا) المكان المثالي لحل مشكلة العقم في خياله وتوقف ذهنه عن الإبداع، لأكثر من سنة حتى الآن. لم يصور له عقله أنه سيكتشف جمال البحيرة هذه وأنه سيجد في السكنى على حوافها البيئة المنشودة لاسترخاء قد يحرض المخيلة ويخلصه من حالة جمود عاني منها لأكثر من سنة حدّت من قدرته على كتابة القصص.

هنا حيث أشجار الحمضيات تتدلى ببهاء مثل دمغة تعطيها لهوية المكان، وحيث ماء البحيرة تحضنه الجبال من أكثر من جهة "أزرق صاف يصلح للتأمل". أما المقاهي المواجهة للبحيرة أو المطلة عليها من السفوح المجاورة، فليس ثمة مكان أحلى منها للقراءة أو الكتابة مع فنجان قهوة اسبريسو، أو فنجان شاي بالليمون كما يفضله

الإيطاليون. ثم هناك العنصر المهم الذي لا يجب أن يتجاهله ككاتب: البشر الذين يتوافدون من أوروبا تحديدا حاملين معهم قصصهم التي تصلح مصدر إلهام لقصصه.

توصل إلى هذه النتيجة بعد بضعة أيام فقط من وصوله مع شركة سياحية متخصصة في سياحة الجبال والبحيرات، الشركة التي عثر عليها عندما كان يبحث في الموقع الإلكتروني (لاست مينيت دوت كوم) المعني بعروض ذات أسعار "لقطة" يتم تخفيضها في الأيام الأخيرة قبل موعد الرحلة. قرأ العرض المغري: أسبوعان إلى بحيرة غاردا شمال إيطاليا بثلاثمئة جنيه إسترليني". وجاء العرض مصحوبا بوجبتي فطور وعشاء في فندق بمستوى أربع نجوم.

لم يكن بحاجة إلى أكثر من هذا العرض الاستثنائي المتأخر، كإغراء للابتعاد عن ضجيج مدينة لندن. ثم إنه يحمل لإيطاليا بصفة عامة صدى عذبا في ذاكرته الأدبية، إيطاليا المكان الذي حج إليه تاريخيا عدد من الكتاب والشعراء البريطانيين والمهتمين أيضا بالأدب والفنون، هربا من تجهّم مناخ بلادهم ذي الصبغة الرمادية. ليس المناخ فقط، فالمبدعون كانوا يهربون أساسا من رتابة العيش المقيدة بتقاليد خانقة كانت تجد متنفسها في المستعمرات التي طالت نصف الكرة الأرضية. أدباء وشعراء وكتاب قصة ورواية بريطانيون أقاموا قريبا من الوطن الأم وبعيدا عنه في الوقت نفسه عندما اختاروا إيطاليا كمقر مؤقت أو دائم، وظلوا برغم ذلك في حضن الحياة المدنية الأوروبية والثقافة الحارة بخيالها وعطائها،

بالمتاحف والكنائس والآثار ومخطوطات الكتب العتيقة. هذا ما فعله شعراء مثل، لورد بايرون، كيتس، وشيلي وآخرين. ولن ينسى وهو يستعيد الأسماء الأدبية، كتاب النثر الذي ينتمي إلى قبيلتهم أمثال دي اتش لورنس وإي ام فورستر. وهو ما يفعله الآن شخصيا، يهرب مثلهم باتجاه المكان المفتوح على الشمس والانفعالات الواضحة والأصوات العالية، والنفوس غير المقيدة بما يجب "أو لا يجب" أن يفعله المرء طوال اليوم، بحسب المسطرة الاجتماعية الإنجليزية.

توصل ادوارد ستيفنسون إلى قناعة الاستقرار في هذا المكان بعد تراكم متابعته لتحركات المسافرين الذين قدموا معه في نفس الرحلة، ونزلوا في الفندق نفسه، راحوا يلهمونه حكايات وشخصيات يحتاجها ليبني عليها قصصه. وتوصل إلى قناعة إلى أن الأمر لم يحتج إلى أكثر من ابتعاد فترة يومين عن جنوب غرب لندن حيث يسكن، كي يسترجع بعضا من طاقة مخيلته ككاتب. في مدينته، لا شيء من حوله بات يلهمه أو يساعده على الإبداع. أما علاقته بأسرته فقد فترت بعد انفصاله عن زوجته قبل ثلاث سنوات، تاركاً لها وللولدين، المنزل الواسع المكون من أربع غرف نوم. لم يكن يريد بعد الانفصال سوى الحصول على شقة مضيئة بغرفة مكتب تطل على منظر جميل يريح أعصابه ويهيئ ذهنه للانطلاق في الكتابة. "غرفة خاصة بي" كما كانت تردد فرجينيا وولف في سياق حديثها عن المرأة والكتابة. "ألا نحتاج كلنا لغرفة

تحتضن وحدتنا وخيالنا. لماذا فرقت وولف إذن بين الرجال والنساء!". يردد لنفسه هذه الجملة كلما عانى من التوتر الذي كان يسكن أنحاء بيته ويحد من تفرغه لكتابة قصصه. ما يحتاجه فعلا "غرفة خاصة بي".

بعد بحث شغل فيه معه المكتب العقاري المحلي، وجد الشقة في مكان معقول في حي (تشيم فيلبيج) قرب (ساتن) الحي الذي اعتاد أن يعيش فيه مع أسرته الصغيرة. لم تكن الشقة بمستوى حلمه، مضيئة، إلا أنها لا تطل على منظر جميل بل على مجرد شارع جانبي هادئ. لا بأس فهذا ما يمنحها ميزة معقولة بحدود دخله وأيضا بمستوى ارتفاع إيجار الشقق في لندن. يكفي أنه وجد المكان الخاص البعيد عن مشاحنات يومية مع الزوجة والابن الأصغر الذي لا تكف أمه عن الدفاع عنه كلما حاول أن يتدخل في مسار حياته المرتبك بعد أن ترك المدرسة وتنقل في أكثر من عمل ودخل في مشاكل عديدة مع آخرين كانت تنتهي بشجار وتضارب بالأيدي. "جيل من دون آباء". يردد باستياء كلما فكر في مشكلات من هم في سن ابنه. هكذا أراد المجتمع البريطاني بعد الحرب للجيل الجديد أن يعيش. لقد قُتل الأب فعليا وليس رمزيا عندما ثار الشباب على السلطة الأبوية في الستينات. والآن يؤنب المجتمع بمؤسساته المختلفة، الأهالي، لأنهم "لم يربوا أولادهم جيدا"!

حسنا، هرب من كل ذلك إلى شقته الصغيرة موهما نفسه أنه سيتفرغ للكتابة تماما. وفكر أنه سيستلهم تلك القضية تحديدا

كمادة لقصصه: "غياب الأب عن حياة الأبناء"، أما لأنهم ولدوا خارج الزواج فلم يعيشوا حياة سوية مع الأب، وهو النموذج الذكوري الذي لا بد منه كي تتوازن حياتهم مع النموذج الأنثوي، أو بسبب ارتفاع معدل حالات الطلاق في بريطانيا. كتب قصتين مستوحيا الفكرة التي نفدت منه سريعا. ثم تناول العلاقات الزوجية التي قد تكون عنصر خنق لأي إبداع وتقود إلى الموات أحيانا، وإن بالمعنى الرمزي للكلمة. وانتهت الثيمتان التي انطلق منهما إلى نشر مجموعة قصصية رابعة لاقت استحسانا عند البعض وثناء أقل عند البعض الآخر من النقاد، إلا أنها رفعت من معنوياته وثقته بنفسه.

بعد قرابة السنة ونصف السنة على صدور المجموعة الرابعة، لم يكتب ستيفنسون قصصا جديدة، بل مجرد مقالات صحفية يعيش من ورائها وينفق على ضرورات حياته. هكذا، كأن آخر أحجار الخيال قد قدح ولم يعد من شيء يستفزه لإبداع قصة. افتعل الحبكة مرات ثم توقف في منتصف الطريق أو في مستهله. وبدأ يشعر أنه غير قادر على الاستمرار في نصه، مع كل محاولاته العودة إلى الكتب التي تشكل دليلا إلى عالم الكتابة السردية، وهي دراسات تنشر لمساعدة الهواة والمبتدئين في عالم الكتابة. يخجل أن يبوح للآخرين بذلك لكنه كان بحاجة الى محرض ولو كان باردا. عاد أيضا إلى قصص وروايات كانت أعجبته كثيرا عندما قرأها أول مرة علها تشحذ خياله بأفكار جديدة، لكن من دون فائدة! وها هو،

ويا للغرابة، بعد أيام قليلة من وصوله إلى بحيرة غاردا شمال إيطاليا، يجد نفسه قد دون مجموعة أفكار لكتابة قصصية. ولو عاش هنا لعدة سنوات فستكون فرصة له أن يكتب عن الأوروبيين الذين اتحدوا سياسيا واقتصاديا، وبقوا مختلفين ثقافيا واجتماعيا. فطالما أن أطباق طعامهم تحمل مذاقا مختلفا بشكل متطرف، ستكون أيضا طريقة عشقهم مختلفة وكل أشكال العلاقات الإنسانية.

منذ وصول ادوارد إلى بلدة (ليمونه) وتسلمه البرنامج المقترح للرحلات الداخلية، وهو يهجس بكتابة قصص عن الحب تحديدا. انطلقت الفكرة أساسا أثناء رحلة داخلية إلى مدينة فيرونا وهي المدينة التي تجري فيها تفاصيل مسرحية (روميو وجولييت) شكسبير الأشهر في العالم بين أدبيات الحب والعشق. بعد زيارة منزل جولييت "المفترض" المحشور في أحد أحياء فيرونا القديمة الرومانية التصميم تبلورت فكرة القصص بشكل أوضح في ذهنه. اندهش من كم السياح المحشورين أمام المدخل المزينة جدرانه بخربشات عبارات حب من زوار المكان الكثر، عبارات وأسماء لمحبين ومحبوبين بلغات مختلفة كتبت بألوان حبر تراوحت بين الأبيض والأحمر والأصفر، كي تعلن عن نفسها بوضوح فوق جدران رمادية عتيقة. وقف هو تحت شرفة البيت العالي حيث فسحة ساحة صغيرة ينفتح عليها المدخل، وراح يتفرج على ازدحام السائحين المبهورين بحقيقة أنهم تحت شرفة جولييت، وإلى الصبايا وهن يجربن الإطلال من تلك الشرفة، متخيلات أنه بين الحشد في الأسفل ربما،

عاشق أبله مثل روميو سيقتل نفسه من أجل واحدة منهن!

تبدو معنويات ستيفنسون في أوجها بعد أن وجد الثيمة الأساسية لمشروعه القادم، بل في حقيقة الأمر انفتحت له أفكار عديدة حول فكرة الحب. سيكتب عن العلاقات العاطفية التي تبدأ باندفاع وحماسة ثم تفتر في منتصف الطريق لأنها في الأساس تنطلق من الوهم، من رداء وعد متخيل يرتديه المحب بغواية واستدراج من الحبيب، أو بسبب خداع ومراوغة من النفس العاشقة هربا من واقع معاش تنقصه البهجة. سيجد هنا في بحيرة غاردا والمناطق القريبة، مثل فينيسيا وفيرونا، إن قرر الاستقرار لبعض الوقت، الشخصيات الملهمة، فمع كل اثنين يصلان للسياحة حول هذه البحيرة الشاسعة الأكبر من نوعها في شمال أوروبا، هناك قصة حب جلباها معهما بالتأكيد. هذا ما يلاحظه في أنحاء الفندق الصغير الذي ينزل فيه، فندق ليمونه، وفي المطعم تحديدا، حيث يلتقي بقية النزلاء صباحا ومساء، فعلى المائدة المواجهة له في المطعم مثلا -حيث خصصت لكل نزلاء غرفة طاولة ثابتة- تجلس امرأة ترافق رجلا في أوائل أربعيناته. إنها تصغره بحدود خمس سنوات كما يبدو. يحمر وجه المرأة كلما همس لها رفيقها ببضع كلمات. لا يسمع هو من طاولته شيئا، لكنه يخمن إنه غزل يبوح به الرجل الأربعيني لرفيقة الرحلة. وإلا فما الذي يجذب المرأة الجميلة إلى هذا الرجل غير الوسيم الذي يفتقر حتى للقيافة. خمن من طريقة ارتدائه لملابسه أنه يعمل في المهن اليدوية لا موظفا يذهب إلى عمله

يوميا مرتديا بدلة وربطة عنق، كما هو حال الموظفين في بريطانيا. استنتج ذلك أيضا من الحذاء الشتوي غير النظيف الذي يرتديه الرجل -برغم أن الطقس دافئ نهارا - وأيضا من غياب التناسق في الألوان بين القطع الثلاث التي يرتديها، القميص والبنطلون والكنزة، وأحيانا الجاكيت. ثم حركات جسده التي تخلصت من قيود جسدية يتبناها الإنجليزي المنتمي إلى الطبقة المتوسطة عادة كي يبقى صارما لا يقرأ الآخرون دواخله ببساطة. كان هذا الرجل يتحرك بلغة جسد تخلصت من ذلك التحفظ، فافترض ادوارد أنه يعمل في واحدة من المهن اليدوية: تركيب سخانات الماء أو تمديد أنابيب التدفئة، أو ربما يكون مقاول بناء متوسط الحال. ارتاح للوصف الأخير، بخاصة أن الرجل كان فارع الطول، يتمتع بيدين وساقين ساعدته ولا بدّ أن يكون بنَّاء في الأساس قبل أن يصبح مقاولا. وكان قد تخيل المرأة الجميلة بصحبته زوجته، ثم توصل الى قرار يميل إلى نفي هذه العلاقة، بسبب أنها تحتفظ برد فعل غريب مستمر: احمرار الوجه كلما تحدث إليها صاحبها. لا بد إذن أنها عشيقته (افترض أن اسمها ميري)، إذ لا يمكن للزوجة أن تظل ذات حواس مرهفة طوال الوقت، تتأثر بكل مفردة أو جملة يهمس بها الزوج. قال عشيقة إذ لا يبدو على رفيقها أنه رجل عازب. شئ ما يقول له أن بطل قصته المفترض متزوج ولديه أطفال. خمن ذلك أيضا من حركة جسده التي لا تتمتع بالسلاسة في علاقته مع تلك المرأة، كأن الزوجة الغائبة والأطفال البعيدين أربطة تقيد حركة

جسمه نحو صاحبته طوال الوقت.

أسبوع انقضى على هذه الرحلة وبدأ ستيفنسون يشعر بمتعة وجوده ككاتب في هذا المكان، يستمتع بالطبيعة والبشر، ويترك لخياله ترميم البقية متعافيا من مرض يصاب به الكُتاب من وقت لآخر أثناء حياتهم. أحيانا يتقصى بعض المعلومات من روبرتا، المرأة التي تدير المكان مع شقيقها ووالدتهما التي تحضر بصورة أقل منهما إلى الفندق، مبتسمة دوما بطيبة يود معها لو يحضنها كما لو أنها أمه التي توفيت قبل ست سنوات. فندق بإدارة عائلية وهذا ما يحتاجه تماما: "رائحة العائلة في المكان". يتأمل وجوده في هذا البقعة الفردوسية حيث لا شيء يثير الأعصاب ويقلب المزاج، بل على العكس، فالصفات المحمودة هنا أكثر مما تمنى وتوقع: لطف المعشر من أصحاب المكان والبلدة، بهاء المنظر الذي يطل عليه الفندق من كتف الجبل إلى حيث الحواري الجميلة التي تتدرج نزولا إلى البحيرة، والمحلات الصغيرة المحشورة في الأزقة عارضة سلعا تذكارية للسواح. ولن ينسى البيوت المبنية كما لو أنها مستوحاة من حكايات الخيال، بدرج عتيق وشبابيك ذات ساتر خشبي أخضر اللون، بينما تستريح أصص الزرع بزهورها الحمراء المبهجة فوق الدرجات وحواف الشبابيك. تفاصيل لا تقاوم وهي تغريه على البقاء أطول فترة ممكنة هنا، حيث هيأ له القدر مكانا اختاره له بعناية هذه المرة!.

يتحرك الكاتب في بلدة (ليمونه) المطلة على بحيرة غاردا

العظيمة كما لو أنه في حلم، ويود لو يبقى هنا بقية العمر. يتخيل حياة لا يتخللها الملل مع احتمال عالٍ لكتابة دائمة وخصوبة في الخيال النازح عنه في لندن. يفكر أنه سيكتب عن مدينته بصورة أغنى حتى وهو بعيد عنها، عندما يصفو ذهنه وتضئ شاشة أفكاره. لكن المفاجأة تجيء مع اقتراح بزغ فجأة في ذهنه: قد يبقى هنا لو ارتبط بروبرتا وبذلك يتوافر له مكان الإقامة. أما المصاريف الأخرى فسيتدبرها بما ينشره من وقت لآخر في الصحافة البريطانية.

الارتباط بروبرتا ليس بالفكرة السيئة!

لم لا.. ؟ ألا ترسل له هذه المرأة العازبة نظرات يفهم منها الإعجاب ومحاولة التقرب منه. تسأله عن قصصه وتبدي رغبتها الحارة في قراءتها، مستعرضة في حوارها معه مخزونها المعقول من اللغة الانجليزية، بينما يحاول هو أن يبدو في المقابل إيطالي الهوى بترديده مفردات التقطها خلال احتكاكه بأهل المنطقة، فيجيبها بـ "سي. سي" كلما بادلته الحديث، متفقا مع تعليقاتها، ومبادرا إياها كلما التقاها بتحية "بونجورنو" أو "بونيسيرا". روبرتا الممشوقة ذات العينين البنيتين والشعر الأسود الذي تتركه مسترسلا بتموجاته مائلا على كتفها اليمنى. روبرتا بتكوينها الجسدي الذي يشبه بطلات أفلام إيطالية شاهدهن في السينما وانجذب لهن بحرارة أرواحهن.

"لكن هل يمكن لروبرتا أن تحبني وأن تقبل بي زوجا؟".

أيضا لم لا؟ قال مهدئا شكوكه التي تراوده حول مدى جاذبيته

للنساء وقد حاول أن يختبرها في لندن ولم تكن سيئة. صحيح أنه في أوائل الخمسينيات من عمره، لكن روبرتا أيضا ليست صغيرة السن، ربما إنها على عتبة الأربعين أو في أواخر الثلاثينيات من عمرها. ثم إنها غير متزوجة حتى الآن وقد تتحمس لفكرة الارتباط به. هي لم تخبره شيئا عن حياتها العاطفية، لكنها لا تبدو منفصلة عن زوج وأبناء. للنساء العازبات ممن لم يعشن تجارب الزواج وهج خاص. حركتهن خفيفة، الفتيات اللواتي لم يغادرن بيوت أسرهن، تلك الحركة غير المثقلة بعبء عشرة مستمرة في الزمن مع رجل محدد. يستطيع أن يؤكد لنفسه أنها مرت بتجربة عاطفية مؤلمة، بل ربما أكثر من تجربة واحدة. يتضح ذلك من حزن في عينيها تخفيه بحيويتها المهنية، لكن المؤكد من وجهة نظره إنها لم تتزوج، بقيت في مكانها، في البيت المزين بأصص زهور الجيروم الأحمر على شبابيك نوافذه ودرجاته، والذي يحلم أن يشاركها العيش فيه مع أمها، شرط أن تكون هناك غرفة بنافذة تطل على واحدة من الأزقة المتدرجة وجانب من منظر البحيرة. إطلالة تصلح مسقط ضوء مناسب للمكتب الذي سيكتب عليه قصصه، بمنظر مريح للعين والروح.

هل ستتمنع عليه روبرتا؟ كرر السؤال المتشكك في ذهنه كثيرا وهو يتمشى بمحاذاة البحيرة الهادئة. وتوصل إلى نتيجة مفادها أن ضحكتها وحركة جسدها تبدوان أحيانا هستيريتين مع محاولتها الواضحة التحكم بهما، شيء مما يصدر عن امرأة تريد الزواج

بإلحاح، أو تنتظر الحب الذي تمنته طوال حياتها. لم لا يكون هو تحديدا الفارس المنقذ؟ هو الذي ملّ العيش في مدينة ما عادت تؤمن بقصص الرومانس التقليدية، وباتت العلاقات فيها بغالبيتها مادية حتى النخاع، جسدية حتى القرف.

الساعة السابعة مساء في هذا اليوم شبه الصيفي في شهر مايو والضوء النهاري لا يزال في الأفق، شاحبا ينجلي ببطء، بدأت أعماقه تمور بالرغبة في الكتابة. شعور حرضت عليه أصوات حركة النزلاء الذين بدأوا يتوافدون إلى المكان مارين عبر البار إلى المطعم الصغير بعد أن حان موعد العشاء بوجباته الشهية التي يعدها طباخ الفندق المتمكن. طاولته دائما ملاصقة للجدار، يسند ظهره إليه ويبدأ بمتابعة المكان من حوله. إلى اليسار طاولتان أخريان، مستطيلتان تتسع كل منهما لثمانية اشخاص. إنها المجموعة التي جاءت من (كورنويل جنوب غرب انجلترا) لتمارس هواية المشي وتسلق الجبال المحيطة المتاخمة للتضاريس النمساوية والسويسرية. ضجيج المجموعة المنقسمة على مائدتين يضفي بهجة صوتية على المكان، فيعجب من انطلاق الشعب الإنجليزي خارج بلاده مثل العصافير الحبيسة! هل للمكان قوانينه اللامرئية، الموروثة من سلوك الأسلاف أو من طبيعة مناخه وتضاريسه؟ ينطلق الإنجليز كمجموعات في البلدان الغريبة بكل المرح والعفوية، ويبقون على تحفظهم نسبيا، عندما يواجهون الآخر كأفراد. وهذا ما يحدث في علاقته مع الزوجين الجالسين على طاولة قربه في المطعم. المرأة تبتسم

له بتحفظ والرجل يومئ برأسه إيماءة جنتلمان يخشى أن يقترب منه أحد من الغرباء إن التقت عيونهم به صدفة. المرأة في منتصف الخمسينيات والرجل يبدو في أواخرها على حافة الستين، وعلاقتهما لا تبدو على ما يرام. يميلان إلى الصمت غالبا، وإن تناقشا، يكتمان انفعالاتهما كيلا تتسرب إلى من حولهما. قدّر أنهما زوجان يمران بأزمة عاطفية وجاءا إلى هنا علهما يحلانها. إلا أنهما وبعد أسبوع على وجودهما في المنتجع، لا يزالان محتقنين، يتحدثان إلى بعضهما بتهذيب بارد لكن من غير عاطفة ظاهرة. ما الذي جرى للعلاقة كي تصل الى هذا المستوى؟ هل هي أزمة منتصف العمر يمران بها أم ميكروب الزواج الذي تحدث عنه في قصصه السابقة؟ هل تقاعدا عن العمل فاتسع الفراغ وكشف عن ندرة ما يجمعهما في الواقع؟ أو ربما أن الزوج يمر بأزمة عاطفية، كأن يكون أحب امرأة تصغره كثيرا على سبيل المثال، واكتشفت الزوجة السرِّ ولم يتعافا بعد من الصدمة.

ود لو يناقش الأمر مع الاثنين كوسيط لولا تحفظ أبناء جلدته، فقد أثارا شفقته وليس فقط فضوله ككاتب. يبدوان زوجين بخلفية مهنية جيدة، ربما كان الزوج محاميا وهي موظفة برتبة متقدمة في أحد البنوك. كما أن التحفظ الذي يتحركان به والرصانة التي يتعاملان بها مع من حولهما، إضافة إلى الملابس المهندمة التي يرتديانها، يشيان بمستوى الخلفية التي جاءا منها.

في تلك الليلة كانت بلدة (ليمونه) تستعد لنصف ساعة من

الألعاب النارية التي ستنطلق قرب ساحل البحيرة مساء. أخبرته روبرتا بذلك في الصباح وأكدت بتباه أن الفنادق كلها تساهم في تمويل هذه الألعاب من أجل الترفيه عن السياح.

بعد العشاء، تسلل عدد من النزلاء إلى كورنيش البحيرة ليفترشوا المقاهي والأرصفة بانتظار اللحظات المضيئة في التاسعة ليلا، بينما قرر عدد آخر منهم، وهو بينهم، أن يجلسوا في شرفة الفندق الواسعة التي هي امتداد للبار، ليشهدوا أضواء النيران الفرحة، من علّ انفرجت أساريره وشعر بالارتياح عندما لاحظ أن أبطال قصصه بقوا في المكان ليوفروا له فرص متابعتهم في شتى المواقف.

علا ضجيج المتفرجين مع الطلقة الأولى للألعاب النارية، وراح صداه ينتقل في الهواء قادما من شتى الأمكنة حول البحيرة الشاسعة، مختلطا بالأنوار الساطعة الملونة التي تفترش أفق السماء. تابع صدى البهجة على وجوه أبطاله، فلاحظ أن من أسماها "ميري" تقف بتشنج قرب صاحبها الذي يعمل في البناء، تضع جاكيتا على كتفيها يرد عنها قشعريرة الليل من دون أن ترتديه. وعندما حاول رفيقها أن يضمها إليه في حمأة حرارة الأضواء والأصوات المبتهجة، أبعدت جسمها عنه قليلا. لا بد أنها تخاصمه. "قد يكون السبب أنه يرفض تطليق زوجته وإعلان علاقته بها على الملأ" !

مسحت عيناه الشرفة بحثا عن الزوجين الآخرين الرصينين. اختفيا من الشرفة والبار معا. شرد بذهنه إلى احتمال أن يتخلص

الزوج من زوجته منتهزا فرصة الضجيج العالي للمفرقعات. ربما سيقتلها ويعود بسرعة إلى المكان ليثبت أنه كان مع الآخرين. انزعج من هذا الخاطر لأنه لم يرد أن يحول التفاصيل باتجاه القصة البوليسية، فهي ليست ملعبه الذي يجيد اللعب فيه، ومع ذلك ظل قلقا لغياب الزوجين. صعد إلى الطابق الثاني إلى حيث اعتاد أن يشاهدهما قادمين من الجهة المعاكسة للممر الذي تقع فيه غرفته، وراح يتمشى يعصبية عله يسمع صوت استغاثة، أو شجار يدله على رقم الغرفة، إلا أن ضجيج الألعاب النارية كان أقوى من أي صوت لحظتها. وعندما صمت الاستعراض الذي قدّر أنه استمر لنصف ساعة بحسب الموعد الرسمي، راح يتنصت لبضع دقائق عله يلتقط صوتا ما، إلى أن فاجأه صوت باب أحد الغرف يفتح ليخرج منه الزوجان مبتسمين لا تبدو عليهما علامات الشجار أو الغضب. ارتبك لضبطهما إياه في الممر من غير مبرر واضح. قال بصوت لم يغط تماما على ارتباكه: " لقد فاتكم المنظر الجميل للألعاب النارية"

"المشهد من شرفة حجرتنا كان أوضح وأجمل". علقت المرأة ثم نظرت باتجاه زوجها "أليس كذلك يا جورج؟" هزّ الرجل رأسه بشدة تومئ بالموافقة "تماما يا عزيزتي.. كان المشهد خلابا". ونظر بتهذيب باتجاه الكاتب الذي ارتبك وقال ليخلص نفسه من الصمت الذي ران على ممر الغرف.

"أوه ما أغباني..غرفتكم تطل على البحيرة". ثم شعر أنه مدين لهما بتبرير وجوده المفاجئ بأن يقول أي شيئ من الكلام. فأكمل

"غرفتي أنا تطل على الجرف الخلفي، من غير منظر. الحظ يلعب دوره بين البشر دوما". ضحك ثلاثتهم ضحك المجاملة المهذبة التي اعتاد أن يتلقاها في بلاده، وعندما نزلوا معا إلى البار حيث اجتمع بقية النزلاء بعد أن نزحوا من الشرفة بحثا عن الدفء هربا من برودة الخارج، قرر أن يهدي الزوجين شرابا على حسابه. أجاباه بذات التهذيب إنهما لا يشربان أي شيء بعد العشاء، وأنهما سيكتفيان بالجلوس قليلا لحين شعورهما بالنعاس.

"ولا شاي أعشاب حتى؟".

"لا شئ". ردا بصوت واحد بدا أنهما اعتادا عليه طوال سني حياتهما المشتركة، فقدر أنهما متورطان بمشاكل لها علاقة بالمثانة ولا يرغبان بازعاجات الصحو الليلي المتكرر. سمة طريفة يمكن أن تضاف إلى الشخصيتين في القصة، فالمتزوجون لسنوات طويلة يتشابهون حتى في المتاعب الصحية.

تنبه فجأة إلى حضور روبرتا وقد أهملها في اليومين الأخيرين، فقرر أن يدعوها إلى سهرة في ناد قريب بعد تلك الليلة التي فشلت فيها تخميناته القصصية. ترددت روبرتا قليلا، إلا أنه نجح في التقاط ذبذبات الموافقة من بين أكوام ما بدا تمنعا في حديثها. تحججت بأنها يجب أن تصحو مبكرا في الغد لتداوم في الفندق لأن أخاها مشغول بمهمة أخرى. ثم قالت إنها ستحاول أن تسأل أخاها إن كان بإمكانه تأجيل مهمته الصباحية. وعادت بعد قليل تعلمه أنها تفضل تأجيل السهرة إلى ليلة الغد "على الأقل سأكون

مستعدة"، وأشارت إلى جسمها في حركة عفوية وخجولة شعر معها برغبة في أن يحضنها لأنها منحته انطباعا أنه يعرفها منذ زمن أبعد قليلا من الزمن الواقعي. "تبقت ثلاثة أيام من الإقامة هنا أيها الكاتب التعس وعليك أن تفاتحها وتحسم أمرك معها بدلا من هذا الخجل الذي ورثته من جيناتك الإنجليزية".

إن كانت هي ستهيئ نفسها مقدما، فماذا سيفعل هو الذي جاء إلى الرحلة بملابس تتلاءم مع روح السفر النهاري، فهو ليس من هواة السهرات الليلية الخارجية عندما يكون بمفرده. اتخذ قرارا أن يشتري في الصباح السترة المخملية عسلية اللون التي لفتت انتباهه في أحد المحلات القريبة قبل أيام وتردد في شرائها بسبب ارتفاع ثمنها إلى حد ما. سيرتديها فوق كنزة صوفية خفيفة سوداء وبنطلون أسود مخملي جلبهما معه من لندن. ملابس تلائم برودة الليل، وربما استطاع بإطلالته تلك أن يغوي روبرتا المتمنعة قليلا أمامه. وعندما صعد إلى غرفته لم ينس أن ينظر إلى هيئته في المرآة فوجد نفسه مقبولا: شعر كستنائي يخف قليلا على الجانبين حيث يبرز الشيب أكثر من أماكن أخرى، عينان يتراوح لونهما ما بين الأزرق والأخضر، غير واسعتين إنما حلوتان كما كانت تقول له زوجته في بداية علاقتهما. سيحاول إذن أن يكشف عن عينيه قدر الإمكان بوضع النظارة جانبا أثناء اللقاء مساء الغد. الخلاصة أنه يملك جسدا لا يتسم بالكوارث، لا صلع ولا كتل دهنية تتدلى من الجسد المتوسط الطول الممتلئ قليلا.

إلا أن روبرتا التي بدت فاتنة في المساء التالي بثوبها السكري اللون الذي يغلب على الجزء العلوي منه قماش الدانتيلا حتى بدت كعروس جاهزة لعرض الزواج، فاجأته بضحكة ساخرة قصيرة ردا على اقتراحه أن يقترن بها ويبقى معها في بلدتها. لم يرض غرورها ولهه بالمكان وسكانه، برغم أنها كانت تتباهى دوما بين النزلاء بجمال وتميز بلدتها. "ولماذا لا نعيش في لندن؟" قالت ونبرة الخذلان تفوح من ردها، فوجد نفسه محشورا في العرض بين منطقتين جغرافيتين. وتصور نفسه يعيش في لندن مع روبرتا فانقبض قلبه، وشعر بوجهه ساخنا، لكنه ارتاح لفكرة أن الأنوار الهادئة في النايت كلوب تغطي علي أي تحول في لون وجهه.

"ولماذا لا نعيش هنا روبرتا. هنا الجنة صدقيني؟"

"أية جنة يا صديقي؟" ثم رفعت كأس النبيذ الأبيض البارد إلى شفتيها محتمية بمفعوله، "أنت هنا في بداية الصيف وبهجة المكان لا تستمر أكثر من خمسة أشهر على أبعد تقدير. بعد ذلك يموت كل شئ في الصقيع وبياض الثلوج. تموت ليمونه وبقية بلدات البحيرة، ويختفي البشر المولهون بالمكان. يتبقى السكان الأصليون فقط، نحن، لنواجه الشتاء الطويل والوحشة المملة بانتظار موسم قصير لا يتجاوز أربعة شهور". وصله صوتها مبللا ببكاء محبوس تحكمت فيه، وقبل أن يعلق أدارت وجهها ناحية الطاولات الأخرى فتخيل أنها تريد أن تستنجد بشهود غائبين على ما قالته للتو.

"لندن موحشة معظم الوقت أيضا والمسافات بين مناطقها بعيدة،

وكذلك البشر". لم تدعه يكمل وردت بحدة: "لندن المسارح وآخر عروض السينما وإصدارات الكتب. المقاهي والبارات المزدحمة. هل رأيت شبابا من المنطقة يعيشون هنا؟" فاجأه السؤال لكنها لم تنتظر رده. "كلهم هجروا البحيرة للعمل في ميلانو وروما وفينيسيا، ولندن، هجروها إلى المدن الكبيرة، تركونا وتركوا العمل في الفنادق والمقاهي هنا لشباب أوروبا الشرقية".

صمتت قليلا فحاول أن يملأ الفراغ المحرج بأن تمتم "نعم. لاحظت ذلك". واستحضر بسرعة الشاب والفتاة القادمين من يوغسلافيا في عمل موسمي ويخدمان في مطعم عائلة روبرتا.

"ما الذي يجذبك إلى مكان مغلق على نفسه، ينتهي مفعوله بعد أشهر قليلة؟"

كان سؤال روبرتا ينسف كل أحلامه وخططه التي جمعها في ذهنه منذ عشرة أيام. ترك لنفسه محاولة أخيرة أن يدافع عن منظومته الذهنية التي حملها معه.

"لكن يا عزيزتي، ألا يطمح كل الشباب للمغامرة هذه الأيام!. هذا يحدث حتى في لندن. شبابنا الآن في دبي وأميركا وآسيا يبحثون عن المغامرة وفرص حياة أفضل. من وجهة نظرهم". غير أن روبرتا التي كانت لا تزال تحتفظ بحماس تعليقها على دعوته قاطعته وهي تنقر بإصبعها الطويل على الطاولة أمامها "هذا المكان كئيب حتى في الصيف، ألا تلاحظ أن غالبية السياح من متوسطي الأعمار ومن المتقاعدين؟".

"لأنهم ينشدون الهدوء والاسترخاء. هذا ما شدني أنا إلى هذا المكان في الأساس يا روبرتا ؟"

وبدأت ملامح روبرتا تقسو، أو هكذا خيل له، فبعد ردوده، وبعد أن فقدت رومانسية الليلة مفعولها المفترض، ما عادت المرأة الجالسة أمامه تأبه برقتها أمامه كما يبدو. قالت له قرارها الختامي: "أنا الآن في الثامنة والثلاثين.. قضيت كل تلك السنوات في هذه البلدة بنظام رتيب يقوم على فترتين في السنة، موسم سياحة قصير وآخر هو بيات شتوي طويل. وأريد أن أخرج إلى مكان فسيح يضج بالحياة".

صدمته الارتباكة التي أحدثها الجدل بينهما، فنسى العودة إلى الموضوع الأصلي، أي مفاتحتها بالزواج، كأن مفعول العرض انتهى بتغير المكان المرشح للإقامة. ثم انتبه إلى أنه وقع أساسا في غرام المكان وليس في غرام روبرتا. في الواقع شعر أنه ما عاد يطيقها بعد تلك الليلة، وفي اليومين التاليين حاول أن يتجنب الحديث معها، مصدوما من تلك النهاية التي لم يتخيلها أبدا، ربما لأنه لم يفكر بها وبنفسه كشخصيتين داخل قصة. لقد توقع أن ترفضه لأسباب لها علاقة بالعمر، أو بالمظهر، لكن أن تربط الأمر بالانتقال معه إلى لندن وتحقير البحيرة الساحرة! فهذا الذي لن يغفره لها بعد أن عرضت أحلامه الطازجة للاهتزاز.

عندما كان ينهي حساب غرفته صباح يوم المغادرة، تعامل هو وروبرتا بشكل رسمي، مسؤولة في فندق ونزيل غريب.

- "تشاو روبرتا".

لم تنظر في عينيه وهو يطلق العبارة الوداعية، تمنت له السلامة "رحلة آمنة" كأي فتاة ذكية أجادت اللغة الإنجليزية بتفاصيلها استعدادا ليوم قد تغادر فيه المكان. ودّ لو يعتذر لها قبل أن يرحل عن سوء الفهم الذي تم بينهما، لكنه ارتبك من الموقف وقرر أن يكتب لها بعد وصوله إلى بيته، ملتزما بالتقاليد الإنجليزية التي تقدس إرسال البطاقات والرسائل البريدية. حمل حقيبته ونزل إلى مدخل الفندق حيث سينتظر الحافلة التي تقله وبقية المجموعة الى مطار فيرونا في طريق العودة إلى مطار تشيزيك بلندن. اقترب من المرأة الشقراء وممن تخيله مقاول بنّاء بعد أن شعر بحاجته إلى الحديث مع بشر آخرين ليحمي نفسه من عقدة الذنب التي تركها خلفه للتو. كانت المرأة التي افترض أن اسمها "ميري" لا تزال تبدو غاضبة من رفيقها. طلب منها هذا الأخير ببرود أن تحمل له حقيبة الكتف التي تخصه بسبب انشغال يديه بالحقائب الأخرى، ردت بصوت لم تأبه أن يكون مسموعا: "أنا سكرتيرة في شركتك ولست زوجتك".

"ليست زوجته" ويبدو أنها لن تكون سكرتيرته بعد وصولهما إلى لندن. انفرجت أسارير الكاتب ادوارد ستيفنسون للمرة الأولى منذ يومين. لقد نجح على الأقل في أن يخمن شيئا صحيحا حول علاقة ما في هذه الرحلة. وهذا يعني أن مخيلته تعمل بشكل مقبول نسبيا، مخيلة كاتب قصصي أصيب بعقم الإبداع فزار بحيرة غاردا وعاد منها ببضع أفكار لقصص حب قد تصلح لمجموعته القادمة.

فتح حقيبة يده الصغيرة وتأكد من وجود دفتر ملاحظاته التي التقطها طوال الرحلة فابتسم وشعر بالراحة أنه عائد إلى غرفة مكتبه في شقته بلندن، متحررا تماما من فكرة وجود مشاكل تعيقه في تلك المدينة التي يحلم بها الآخرون.

لندن 2005

زهــور آدم

صباح كل اثنين، بداية أسبوع العمل وفي طريقي إلى محطة القطار، يكون موعدي مع مستر والدن صاحب محل (زهور آدم) الذي أشتري من زهوره ما يشابه زهور بلادي، الورد والرازقي والقرنفل. أنوّع الألوان والتشكيل في كل مرة أزوره فيها، لكنها تظل ضمن مجموعة محدودة من الزهور لا أتجاوزها عادة. أنا زبونة المحل منذ أقل من سنتين، منذ تسلمت عملي الجديد في إدارة شؤون اللاجئين في منطقة فوكسهول، وهي منطقة تعج بالسير والمارة وتقطنها أغلبية غير ميسورة ماديا، باستثناء حوافها التي تطل على نهر التيمز حيث ترتفع بنايات سكنية راقية، ويقبع مركز للاستخبارات البريطانية بمبانيه ذات اللون الأصفر والأخضر.

المنطقة التي أعمل فيها غير مريحة للعين ولا للأذن، بزحمة

مبانيها القديمة القاتمة وتقاطع الطرق السريعة المحازية مرددة أصداء سرعة المركبات المارة، سيارات وحافلات ركاب وعربات قطار من غرب وجنوب غرب لندن، وخط قطار اليورو الذي يصل بين مدينتي باريس ولندن.

داخل المبنى المرتفع التابع لبلدية المنطقة، تم تخصيص أحد الطوابق لإدارتنا التي تتعامل مع اللاجئين: مشاكلهم ومعاناتهم واحتياجاتهم المادية والمعنوية، مثل الدورات المتخصصة والمنح الدراسية. كل تلك المعلومات تزين الجدران بملصقاتها الإعلانية، وكتيباتها التي اصطفت على الأرفف بأكثر من لغة كي يتمكن غالبية طالبي اللجوء المترددين على الإدارة من قراءتها. ولم تترك التوجيهات مساحة للوحة جميلة أو حتى لفراغ مريح للبصر. ولهذا السبب أحمل زهوري صباح كل اثنين وأضعها في مزهرية شفافة كبيرة مخروطية الشكل. وقد نقلت المزهرية في الغرفة إلى أن استقرت في مكان مثالي، لثلاثة أسباب: أولاً يمكن أن أستمتع برؤيتها غالبية الوقت، ثانيا سيبتهج زملائي الثلاثة وكل متردد على المكتب، برؤيتها، وأخيرا ستكون جزءاً من الكادر الذي يراني من خلاله الآخرون.

محل (زهور آدم) يقع قبل محطة القطار تماما في منطقتي السكنية التابعة لمقاطعة سري جنوب غرب العاصمة البريطانية حيث أسكن منذ سبع سنين بعد حصولي على حق اللجوء في هذه المدينة. وهو يقع على مرتفع بمسار ضيق يشرف على الطريق العام

ويقود إلى محطة القطار، ويعقب عدة محلات كئيبة لها علاقة بالمأكولات السريعة، وتصليح الكهرباء، وبيع الملابس الرخيصة. فجأة، تظهر بضاعة (زهور آدم) كهدية لعابر السبيل: نباتات صغيرة للبيت وباقات من الزهور بمختلف الألوان والأشكال، صفت على حيز مستطيل في أوان بلاستيكية وأخرى معدنية كي لا تزاحم المارة المسرعين إلى قطاراتهم عند الجسر المعلق بعد المحل بقليل.

في يوم اثنين من تلك الأيام التي اعتدت زيارته فيها، أطلت الوقوف أمام (زهور آدم) حيرى. دخلت إلى المحل الضيق المستطيل وخرجت منه عدة مرات مترددة غير حاسمة أمرى على نوع معين من الزهور اشتريه.

"هل باستطاعتي أن أخدمك؟"

سألني مستر والدن بتهذيب وحزم معاً، كأنه ما كان مرتاحا من زبونة تقفز كالنحلة بين زهوره من دون أن تستقر على أي منها.

"في الحقيقة لم أجد الزهور التي أبحث عنها".

قلتها وشعرت بالندم لأنه قد يسألني عما أريد تماما، ولحظتها سأرتبك.

بقى صامتا وراح ينقل نظره بين الأواني المعدنية التي وضعت داخلها الزهور، فلاحظت أن جفنيه يميلان إلى انتفاخ قليل كأنهما لرجل تعود أصوله إلى منطقة القوقاز. كان مستر والدن ذا بشرة بيضاء تميل إلى إحمرار خفيف، ويحمل شعراً فقد لونه الأصلي ليصير ثلجيا أقرب إلى درجات الرمادي. ربما كانت أصوله من

سهوب آسيا عبر الهجرات البشرية الكثيرة التي تمت على مر التاريخ، وقد احتفظت بجيناتها ومنها الجفنين الضيقين، علامة دامغة على ذلك الحدث البعيد.

"يبدو أنك تبحثين عن نوع نادر جدا من الزهور يا عزيزتي؟"

علق بذات الصوت الهادىء الذي يتوقع حسماً سريعا لوجودي في المحل، وبذات أسلوب حس الدعابة المعروف عن الشعب الإنجليزي، والتهكم الذي يميل إلى الكشف عن المفارقات والتناقضات في الحياة، من غير أن يصدر الكلام عن ضحك أو قهقهة. في تلك اللحظة دخلت امرأة ألتقيها كثيرا في المحل وتبدو في أوائل السبعينات من العمر، تكبره قليلا وقد تكون واحدة من قريباته إذ بدأت تتحرك في المحل بحرية شديدة. امرأة أنيقة وترتدي غالبا بنطالا وبلوزة يبرزان تناسق جسدها النحيل الطويل، قياسا بامرأة في سنها.

كان مستر والدن لا يزال ينتظر إجابتي فقلت له:

"في الحقيقة اعتدت أن أشتري زهورا تذكرني بموطني الأصلي، لكنني اليوم غير متحمسة لها". وأشرت ناحية أوان معدنية امتلأت بزهور القرنفل النحيلة والورود التي تحول بعض وريقاتها إلى اللون البني الخفيف علامة على الذبول.

"لكنك تعيشين هنا ولست هناك يا عزيزتي!".

أحسست في نبرته المقتضبة تقريعا، ثم جاءني صوت السيدة التي كانت جلست لتوها على كرسي إلى يمين المحل المستطيل

الضيق. "أوه يا عزيزتي هل ستبقين طوال حياتك أسيرة ما اعتدت عليه في بلدك. لماذا لا تجربين شيئا جديدا، الزهور الأخرى أيضا جميلة". قالتها وأشارت بيدها بحركة دائرية نحو الأصص فرحت أنا بدوري أجرد المحل مرة أخرى بنظراتي لأتخلص من الإحراج وأعثر على ما يرضيني. دخلت وخرجت عدة مرات ولاحظت أن الزهور الأخرى في غالبيتها جميلة وجذابة، لكن رغبتي في الزهور لا تتعلق بالجمال فقط. حاولت أن أشرح وجهة نظري كي أبرر تمهلي أمام الأواني:

" للزهور في بلادنا معان ودلالات". نقلت نظري بين الاثنين فوجدتهما ينتظران شرحا وافيا فاكملت:

البنفسج مثلا يبهج الروح مع أنه زهر حزين، هكذا نقول في غنائنا".

"هل هو غناء باللغة الهندية؟".

قاطعتني المرأة ،فكدت أضحك على الخلط الذي يقع فيه الإنجليز بين شعوب العالم مع أنهم استعمروا غالبيته في القرن الماضي. "لا ليس كذلك". وقبل أن أشير إلى بلادي الأصلية اقترح عليّ صاحب المحل زهور التوليب التي كانت تصطف بألوان تتراوح بين الزهري والبرتقالي المصفر. وافقته لأحزم موقفي بسرعة بعد أن طالت وقفتي في المحل:

"نحن شعوب الشرق أبناء الشمس، لذا أفضل اللون الأصفر، لأنه يضيء مثلها".

ما كدت أنطق بالتعليق حتى مد مستر والدن يده إلى إناء باقات

التوليب والتقط منها باقة برتقالية اللون راح يلفها بسرعة بورق أبيض باهت من النوع الرخيص نسبيا. "جنيهان ونصف" قالها وهو يناولني إياها حاسما ترددي ووقوفي الذي طال في المحل. أحرجتني حركته فمددت يدي إلى حقيبتي لأدفع له المبلغ وأنا مرتبكة، ثم تركت المحل يرافقني تعليق مرح من المرأة العجوز "حظا سعيدا مع شمسك" في أشارة إلى الباقة التي أمسكت بها للتو، من غير أن تظهر أدنى فضول في معرفة البلد الذي جئت منه.

مضيت بباقتي وأنا أشعر برابطة قوية تجمعني مع التوليب الذي أحمله بيدي طالما أنه صار رمزا للشمس.

في طريقي إلى المكتب وفي الأيام التالية تردد في رأسي الحوار الذي تم في محل مستر والدن، وشعرت بالخجل قليلا من ظهوري بمظهر المنغلقة على نفسها التي تأبى أن توسع من بؤرة عدستها لترى الواقع الجديد الذي تعيش فيه. كيف أكون ضيقة الاختيارات وأنا أعمل ضمن فريق عمل لمساعدة اللاجئين على الاندماج في المجتمع الجديد؟ أأبدو رافضة حتى لزهور المكان، أنا التي أعشق الطبيعة وأعشق النباتات والزهور بكل أشكالها، حتى إنني أبحلق بالمقابر لأنني أجدها تزهو بألوان الزهور الكثيرة المزروعة في أرجائها، أو بتلك التي يحملها زوار القبور لأحبتهم ممددين إياها قرب جثثهم، خارج القبر. أو عندما يقف القطار في محطة إيرلزفيلد فأبحلق إلى المقبرة المجاورة من جهة اليمين، وغالبا ما أجد بعض الزوار وقد جلسوا فوق المقاعد المتناثرة في المكان ليتأملوا

حيواتهم أو يستذكروا الأحبة الراقدين الآن بسلام وسط احتفال الزهور الملونة المتناثرة أمام القبور. أقول لنفسي إن الأحياء يحملون الزهور إلى المقابر كي يزينوا مكانا موحشا بعنصر يرمز للحياة، ليعيدوا التوازن إلى مساحة خصصت لسكان الموت. ولكم تساءلت: هل يشعر الموتى بزهورنا، هل يرونها، أو يشمون رائحة العطري منها؟ وعندما ألحظ وجود بعض الزوار من كبار السن بمفردهم جالسين فوق المقاعد المتناثرة، صامتين مبحلقين في الفضاء الذي يلف المكان بخشوع، أتخيلهم يعوّدون الروح على حقيقة لابد آتية، مقنعين النفس أن المكان جميل مثل حديقة عامة، ولا يبعث على الوحشة.

"أنا هنا ولست في تلك البلاد" قلت أؤنب نفسي..لماذا إذن أنحاز لزهور معينة دون غيرها فأشتري زهور الفريشيا برائحتها العطرة، وأتخيل أنها زهور القداح، تلك التي تتفتح من غصون البرتقال؟ ولماذا غرست في شرفة شقتي البسيطة أكثر من إناء ورد جوري ليس له رائحة ورد بغداد، ولا قدرته على مقاومة الريح وحرارة الصيف، ينفرط خلال أيام من زهوه بتفتحه!. مستر والدن ومساعدته لم يكابدا المنفى ليعرفا معنى أن يذكر المرء نفسه بأرضه الأولى، حتى وإن كانت الذكرى بنوع معين من الزهور. أم إنني أتحجج مرة أخرى بمبررات واهية كي أبقي بؤرة عدسة عينيّ في وضع الزاوية الحادة، ترى ما يريده لها حنينها أن تراه في مسقط ظل الزاوية؟

هما على حق وأنا أيضا، فلم لا نلتقي في منتصف الطريق؟

بعد هذه التسوية مع نفسي حملت في إحدى المرات إلى مكتبي

زهور الأنثاريوم الحمراء التي اقترحها مستر والدن عليّ أن كنت مستعدة لدفع ثمنها المرتفع، وافقت على اقتراحه ربما لأبدو غير بخيلة على نفسي، غير إني وبعد أن وضعتها في المزهرية الشفافة تلبسني شعور بالذنب لأني وجدتها، بشكلها الهندسي الأقرب إلى رسم حداثي، وملمسها الشمعي الفاخر ولونها الأحمر، تصلح لصالونات راقية لا لمكتب بسيط يعنى بشؤون اللاجئين والمهجَّرين.

وفي زيارة أخرى، لاحظت زهور القرنفل متفتحة نضرة في المحل، ليست برؤوس كتيمة مكبوسة كما في أغلب زهور القرنفل الموجودة هنا. صرخت بفرح "آه. هذه تحديدا تذكرني بالعراق". وحملت باقتين، واحدة حمراء، والأخرى بيضاء يعلو أوراقها خط خفيف بلون خمري.

"هل قلت العراق؟" سألت المرأة العجوز ثم وجهت حديثها لزميلها قائلة "بيتر! والدك خدم كجندي في العراق منذ سنوات طويلة، أليس كذلك؟" كانت تلك المرة الأولى التي أعرف فيها اسمه الأول، فمستر والدن متحفظ لا يتحدث كثيرا إلى زبائنه لولا توريطات مساعدته العجوز أحيانا. لذا لم يعلق كثيرا على كلامها كأنما استاء من البوح بسرّعائلي لا يعني غيره. اكتفى بهز رأسه مع دمدمة خفيفة "نعم. كان ذلك في العشرينات من القرن الماضي"..وعندما لاحظ والدن اهتمامي بحديثه، أكمل قائلا " لكنه عاش القسم الأكبر من وجوده هناك في منطقة تدعى ."Marshes الأهوار! بالطبع إنها مكان ساحر. أعتقد أن لديَ كتاب عن

المنطقة.. هل تريد الاطلاع عليه؟". "إن كان ذلك لا يزعجك". أجابني من غير أن تبدو عليه البهجة، إلا أن نبرة الاهتمام كانت واضحة تماما في رده، الأمر الذي أسعدني، لأن شيئا مشتركا صار يجمعني بصاحب محل (زهور آدم) وبمساعدته، شيء يكسر حدة الغربة بين مواطن ومهاجرة.

كان ذلك في الأيام الأولى لاندلاع الحرب على العراق، عندما تصارعت في داخلي مشاعر متناقضة،: أولا فرحتي باقتراب موعدي مع مدينتي الأولى وقرب لقائي مع أهلي وأحبتي، ثم قلقي في الوقت نفسه مما ينهمر على البلاد من قنابل، أرضا وجوا. أقول لنفسي هل سيتبقى من الأحبة أحد بعد ذلك؟ وهل ستصمد الأمكنة بانتظاري كي أراها كما تركتها قبل سبع عشرة سنة؟ ورحت أقلب في بعض ما حوت مكتبتي البسيطة من كتب عن العراق جمعها زوجي من مدن عديدة، أبحلق في الصور كأنما لأذكر النفس بما قد تكون نسيته، أو سهت عنه في معمعة الاغتراب الذي توزع على عدة مدن مذ تركنا البلاد. هذا هو كتاب عن الأهوار يسجل لزيارة الرحالة البريطاني ثيسيجر، بالصورة والكتابة. لكن هل لا زالت هناك أهوار بعد أن جفف النظام غالبيتها بتحويلها لمجرى النهر نحو مسار آخر!

وتذكرت وعدي لمستر والدن بعد أن أنستني إياه تفاصيل القصف اليومي، فحملت الكتاب لأريه أين خدم والده عندما كان في العراق. ولدهشتي تسببت بادرتي بفرحة لم أتوقعها انجلت عن ابتسامة بشوشة لم أرها على وجهه من قبل. "هل لي أن أستعيره

منك إن كنت لا تمانعين؟" أدهشتني انفعالاته الجديدة نحو مكان لم يبد حماسا كبيرا له في المرة السابقة. وما كان بوسعي أن أرفض إعارته الكتاب، كنت أريد أن يشاركني غالبية من أعرف مشاعري التي تتضارب في داخلي نحو العراق. ولدهشتي، سألني مستر والدن إن كنت متوترة بسبب الحرب، وعما إذا كنت مع الفكرة أم ضدها؟ وأضاف"هل تعتقدين أن بريطانيا وأميركا اتخذتا الموقف الصحيح بإعلانهما الحرب لتغيير النظام هناك؟" .

أسئلة كثيرة ما كان لبائع الزهور أن ينطق بها تلقائيا من قبل وهو يتعامل مع زبونة تسكن بالجوار. أسئلة امتزجت معها تعليقاته حول الأهوار مسترجعا كلام والده عنها "لقد كان يقول لنا أنها مثل فينيسيا يتنقل الناس فيها بقوارب صغيرة. لكنها أكثر إثارة من فينيسيا. الناس هناك تعيش في بيوت من القصب فوق الماء. يا إلهي شاهدنا كل ذلك في الصور التي حملها معه، والآن بهتت تقريبا" . توقف ليلتقط أنفاسه قبل أن يسألني "هل تعتقدين أنني أستطيع أن أحصل على نسخة من هذا الكتاب؟ هل لا يزال يباع في المكتبات أم أنه خارج العرض الآن؟" .

وعدته أن أبحث له عن الكتاب أو ما يشابهه من عناوين في المكتبات التي أمر بالقرب منها عادة. إلا أن تفاصيل الأحداث المتوالية بسرعة لجمتني إلى حد أنني ما عدت أتوقف أمام محل والدن، كأنني لا أستحق أن أمتع النظر بالزهور والمقابر الجماعية تكتشف الواحدة بعد الأخرى في العراق.

خواء وفراغ خلفه غياب الزهور في ركني الدائم داخل المكتب، وكانت المزهرية تقف فارغة مثل شاهدة قبر مهجورة. أعترض زملائي على موقفي ممازحين بأنني قطعت عليهم عادة عهدوها مني، ووعدوا أن يدعموني بثمنها إن كان المبلغ الذي أصرفه شهريا على الزهور هو السبب في توقفي عن شرائها. لم أتجاوب كثيرا مع تعليقاتهم، قد أكون ابتسمت بفتور، إذ ما عاد قلبي يحتمل الفرحة وأنا أتابع اكتشاف الجثث كل يوم، الثروة البشرية التي تستخرج من الأرض على شكل أكياس لحم. هل ستظهر جثة أخي الغائب في السجون منذ الحرب السابقة؟ هل يعود أخي على شكل جثة.. خرقة بالية لا روح فيها؟ قال لي هاتف من أحد أفراد عائلتي من بغداد أن خالتي عثرت على جثة زوجها بين ما كشف من مقابر جماعية، وأنهم دفنوه في حديقة البيت رافضين فكرة نقلها إلى المقبرة. هلى تعتقد خالتي وأبناؤها أنهم يعوضون الميت ويعوضون أنفسهم عن سنوات حرموا فيها من بعضهم البعض، بأن يبقوه هذه المرة في مكان آمن تحت حراستهم لا يمسه سوء بعدها!

بقيت لفترة لا أقرب محل الزهور حتى لاحظت مرة أثناء مروري أن المحل مغلق. كان ذلك يوم الأربعاء، ولم يفتح مستر والدن محله حتى في عطلة نهاية الأسبوع. قلقت عليه وجال في خاطري أنه ربما كان في حالة صحية سيئة، وربما ما هو اسوأ! وكان من الصعب عليّ التأكد من إخباره، خصوصا وأن جيرانه في المحلات الملاصقة لا يعرفون عنه شيئا.

في صباح الإثنين اللاحق فوجئت بإطلالة أواني الزهور تستقبلني عن بعد منذ بداية طريقي إلى محطة القطار، فابتهجت بعودة صاحب المحل. ولأن علاقة الود التي خلقت بيننا بسبب كتاب الأهوار لم تزل حاجز الرسميات، ما كان سهلا أن أتطاول على خصوصياته وأسأله عن سرّ غيابه لأيام. لكن بدا من ملامحه أن شيئا ما غير طيّب قد حدث في حياته، إلا أنه كعادته، بدا منشغلا في المحل الضيق كأي رجل مخلص لعمله، باستثناء أني لاحظت حدبة في أعلى ظهره بدت كأنها ظهرت فجأة أو أنني أنتبه إليها لتوي فقط. رمقني مستر والدن بنظرة سريعة ورد على تحيتي الصباحية باختصار. شعرت بالارتباك، حيرى بين وجوب أن أقول شيئا للغائب العائد وبين أن أقرر ما أريد اختياره من زهور. سارع هو إلى انتشال باقة من زهور الهاياسينث البنفسجية التي كثيرا ما كنت اختارها في الفترة الأخيرة لقرب شبهها بزهور فم السمكة، ولفها في ورق بلون البيج قائلا" جنيهان وثمانين بنسا". كدت أقول له "أأنت بنفسك تناولني الباقة البنفسجية، رمز الحزن؟" لكن وجوم وجهه ردعني عن ذلك.

بعد خروجي من المحل ساهمة، التقيت مساعدته العجوز التي كانت في طريقها إليه. لم اتمالك نفسي من سؤالها عن سرّ إقفال المحل وغيابهما عنه هي ومستر والدن في الأيام الماضية.

"لقد قتل ابنه الجندي في جنوب العراق".. قالت وقد بدا عليها التأثر ثم أكملت. "لم يكن الشاب قد مضى على وجوده هناك سوى

فترة قليلة عندما قتل، يا لحظه السيء ذلك الشاب". ساد صمت بيننا لأنني فقدت القدرة على قول تعبير مناسب أمام الخبر المفاجئ. لكنها تدخلت قائلة "الجمعة الماضي دفن وزملاؤه الآخرون في كاتدرائية تشيشستر، وكان القداس رائعا والصلاة على أرواحهم كانت مؤثرة جدا. ألم تسمعي عنهم في وسائل الميديا؟". لم يكن صوت المرأة عاليا، إذ تحدثت بصوت خفيض كي لا يصل صداه إلى سمع مستر والدن في المحل القريب.

"بالطبع سمعت".. ثم انعقد لساني ولم أنجح في إكمال الجملة. لم يخطر ببالي أن ابن والدن قد يكون مجندا وأنه من بين الجنود القتلى الذين أشارت إليهم الأخبار. ورحت من ارتباكي أردد عبارة "أنا اسفة لسماع الخبر". شكرتني المرأة بتأثر بعد أن أخبرتني أنها قريبة زوجته وتسكن بالقرب من بيتهم، وعبّرت عن سعادتها لعودته إلى المحل الذي قد يخرجه من صدمته وصمته بتعامله يوميا مع الزبائن. حيّتني ومشت، فبقيت أتابعها لحين دخولها المحل بعد أن مرت بمحاذاة أواني الزهور. فكرت أن أعود لأقول له شيئا يواسيه، وانتبهت إلى أن اللغة الإنجليزية لا تحمل تعبيرا يشابه العربية في العزاء "البقية في حياتك". وخطر ببالي لحظتها أن أقول له "على الأقل ابنك زار المنطقة التي أحبها جده، ورآها بعينيه". إلا أنني لم أكن واثقة إن كانت طبيعة العلاقة بيننا تسمح لي بقولها له بصوت عال.

2003

بورتريه للجلاد

لم يكن صوت إغلاق باب المقصورة بشدة ما أيقظ انتباهي وترك عيني مفتوحتين بعد استرخاء لم أتحكم فيه منذ بدأت رحلتي من محطة (دوركنغ) قبل قليل. ففي النهاية، يعمل ضجيج الأشياء من حولي مجرد خلفية صوتية للمشاهد المتتابعة أمامي. وبهذا تكمن نقطة القوة لدي في الجانب البصري تحديدا. والمشهد الجاري أمامي الآن بطله رجل أقرب إلى النحول، وبكامل قيافته، في أواخر سبعيناته ربما، ويبدو في حركة جسده مايشي أنه كان يشغل مركزا مهما في موقع ما.

رسم وجوه البشر هي مهنتي التي أتعيش منها، أما البحلقة في الوجوه أينما تحركت، فهي شغفي الحقيقي -إن كان استعمالي لمفردة "هواية" مبتذلا في هذا السياق-.

منذ ثلاثين سنة وأنا أعمل في الصحافة وأرسم الكارتون متتبعا ملامح المشاهير في عوالم السياسة والرياضة والفن، يتركز هاجسي على أن أكتشف من تلك الملامح ما يمكن أن أضخمه لاحقا أو أركز عليه في رسوماتي فلا أعود أرى الوجوه إلا بحسب تخيلي لها. وهذا ما حدث معي عندما التقيت بمسز ثاتشر صدفة في معرض خصص للرسومات الكاريكاتيرية الصحفية التي كانت هي موضوعها. كان ذلك قبل بضع سنوات وفي صالة (ناشيونال بورتريت غاليري) حيث راحت تدور في المعرض تضحك على نفسها -من وجهة نظر الآخرين- ثم خرجت غير مبالية، كأنما لسان حالها يقول "ارسموا ما شئتم واسخروا ما طاب لكم من رسم وكتابة.. في النهاية سأستمر في طريقي لتفكيك القطاع العام وبيعه وضرب النقابات وفرض الضرائب. القطاع العام مثل الشعب، همه كبير." في ذلك اليوم الذي التقيت فيه رئيسة الورزاء وجها لوجه لم أر في أنفها الحقيقي إلا منقارا معقوفا، تماما كما تخيلته في رسوماتي وتخيله رسامون آخرون، لكن واقعيا، لا أعتقد أنها تحمل أنفا بهذا السوء، فما تحت ذلك الأنف هو الأسوأ، لسانها.

القطارات عادة أفضل مكان لممارسة ذلك الشغف، أي البحلقة في ملامح البشر. وعندما أستقل أي قطار، تعمل وجوه الركاب موديلا لخيالي. أرسم الوجوه وأكاد أحيانا بعد أن أنتهي منه، أريه لصاحبه، قبل أن أنتبه إلى أنني رسمته على خامة لا يمكن إخراجها

من القسم الخاص بها، فهي تقبع في منطقة في الدماغ لا أعرف ما أسمّيها تماما.

تراكم البحلقة سنوات طوال، جعلني أرى وجوه ركاب القطارات تتداخل مع وجوه المشاهير وتشترك معها في بعض الملامح. فأدخل في أحجية وأحاور نفسي متسائلا "هل أنا أستلهم الواقع أم أنه، الواقع، يكرر ما في أذهاننا من صور مختزنة!" هذا الراكب الجالس أمامي الآن مثلا، له ملامح تبدو أنها مرت على أناملي وخضعت لمبضع قلمي. ملامح خبرت اتخاذ القرارات القاسية وتوجيه الأوامر لمن حولها.

رحت أنقر أصابعي على سطح حقيبتي المسطحة الممدة فوق ركبتيّ، كأنني أستفز ذاكرتها لتساعدني في استعادة الصورة الأصلية له، خصوصا أني لا يمكنني البحلقة في جاري مباشرة، بل المرور على ملامحه وأنا أراوغ النظر إلى اتجاهات عديدة داخل مقصورة القطار الذي يقل الركاب من منطقة (غيلفورد) خارج لندن، إلى محطة ووترلو في مركز المدينة.

كان الرجل يقرأ في صحيفة بعد أن أخرج نظارات القراءة من جيب سترته، وجلس واضعا ساقا على ساق بما يوحي بثقته الشديدة بنفسه، غير آبه بمن حوله. مؤكد أنني أعرفه. وراحت ملامحه تدق بشدة على جدران ذهني علّ اسمه يقع فألتقطه. رن هاتفه الجوال فوجدتني متنصتا على مكالمته، "هل نصف الفعل بالتنصت إن كان صوت المتحدث عاليا!". ثم أن المقصورة التي نجلس فيها لا تضم

غيرنا، وهي صغيرة وضيقة بما يكفي لأن يسمع الراكب أنفاس الركاب الآخرين. سمعته يرحب بشخص ما، ثم رد على ما بدا أنه استفسار من الطرف الآخر قائلا "نعم لقد فعلوها بعد كل ما قدمته. حدث ذلك قبل شهور. أعرف أنك لم تكن هنا". التبست علي نبرته التي تراوحت ما بين الحرقة والتهكم، ثم أقفل الهاتف واعدا محدثه أن يلتقيه لاحقا معتذرا عن اليوم لارتباطه بموعد.(Lunch)

فجأة تحللت الشيفرة وربطت الملامح بحركة الوجه، بالخبر المشار إليه. كانت الصحف قد نشرت أخيرا أن موغابي رئيس زيمبابوي سحب الجنسية من ايان سميث بسبب رفضه التنازل عن جنسيته البريطانية. كيف نسيت الجلاد العنصري وقد رسمته من قبل يحمل بيده موسى حلاقة، ويحمل في اليد الأخرى مواطنين سود يقطع رقابهم. صورة بشعة لكنه كان يستحقها ! كان سميث نجمي المفضل في سبعينات القرن الماضي عندما كنت أعمل مع صحيفة .AFRICA بل كان الوجه الأكثر تكرارا في وسائل الإعلام العالمية، صورا ورسوم كاريكاتيرية، ومقالات تعترض على سياساته العنصرية في روديسيا البيضاء التي أصبحت بعد ذلك زيمبابوي، معتزة باسمها الإفريقي الأسود.

انفتح كل ذلك أمامي على اتساعه وكأنني هناك في تلك الفترة من مرحلة السبعينات. إلا أني وبعيدا عن استرجاعات ذاكرتي تنبهت فجأة للحقيقة المدهشة: أنا أمام ذلك الرجل الشهير وجها لوجه، أو هكذا يهيأ لي. كان شعورا مربكا لم أتوقعه يوما ما، أن

اجتمع بشخصية شهيرة رسمتها يوما ما، على هذا المستوى من القرب. صحيح أنني التقيت المرأة الحديدية من قبل، بيد أنني لم أكن وحيدا معها داخل مقصورة صغيرة في قطار، بل كنا في قاعة فنية مزدحمة بالبشر. ثم أن احتمالات لقائها واردة أكثر من لقائي بالمستر ايان سميث البعيد عن الأنشطة الحياتية اليومية في لندن منزويا في مكان ما لا أعرف عنه شيئا. كان يبدو بعيدا في الجغرافيا وفي الزمن بعد أن أطفئت عنه الأنوار قبل نحو ثلاثة عقود، وابتعد عن الحكم مكتفيا في البداية بالاسترخاء في مزرعته في زيمبابوي كغيره من الأقلية البيضاء في البلاد. ولم يخطر ببالي بعدها أنه قد يكون يحيا في هذه المدينة الكبيرة.

توقفت العربة عن الاهتزاز وانطلق صوت السائق يعلن بتهذيب شديد عن تأخير بسيط في جدول مسار الرحلة سببه مشاكل تواجه القطار الذي يتقدمنا.

"يا إلهي كيف تحتملون كل ذلك ولا تثورون؟"

قالها جاري بلهجة واضحة التهكم والاستياء بعد أن نقل نظره بيني وبين بقية تفاصيل العربة. أربكني تعليقه، أو بالأحرى الجملة الأولى التي قطعت الصمت المخيم علينا. وقبل أن استهل تعليقي أكمل كلامه بالقول:

"مشاكل القطارات في هذا البلد ما عادت تحتمل."

"نحن هنا ننظم الإضرابات ولا نقوم بانقلابات. يبدو أن السيد غريب عن بريطانيا؟" . .

كانت فرصتي التي لا تعوض لاستدراجه إلى فخ يؤكد أو ينفي كونه إيان سميث. كان رده سريعا ومعتزا بنفسه.

"لا. لست غريبا" وأشاح ببصره عني وتابع قوله "ولا أدري إن كان ذلك من حسن أم من سوء حظي."

ثم أطلق ضحكة عالية تقلصت معها عضلات رقبته التي طالتها عاديات الزمن فازدادت نحافة. أكمل بغرور، أو ما هيئ لي كذلك:

"على أية حال أنا لم أعش في هذا البلد سنوات طويلة. شكرا لله".

هززت رأسي ومنحته نصف ابتسامة بينما كنت أفكر في رده المفتوح الذي فوت عليّ فرصة استدراجه للكشف عن شخصيته. فلو أنني سألته "وأين كنت تعيش يا سيدي؟" لربما اعتبرها تجاوزا وتعدّيا عليه، خصوصا إذا جاء السؤال من شخص ذي أصول كاريبية مثلي، يذكر اللون الأسود لبشرته بالسكان الأفارقة في روديسيا البيضاء!.

بدوت مرتبكا في محاولتي منع عيني من النظر إلى جاري الجالس أمامي. ورحت اسأل نفسي: "لماذا يقلقني وجوده، ولماذا أتمنى في داخلي أن يكون هو ايان سميث تحديدا؟ لماذا هذه الرغبة في مواجهة شخصية رسمتها كثيرا حتى صارت كأنها من معارفي الذين لا أحبهم؟ هل أريد أن أثبت لنفسي أن ذلك الجلاد من لحم ودم ويتنفس، ولم يكن من صنع خيالي أو خيال الآخرين الذين ناهضوه؟".

لم أتحكم بحركة يدي وهي تمتد نحو الحقيبة لتخرج الأوراق، ثم

وهي تخرج قلم الفحم من الحقيبة، مستغلا فرصة أنه كان يجري مكالمة هاتفية والقطار يتحرك ببطء ثم يتوقف، لأبدأ برسم بورتريه له. كان كلانا يجلس في زاوية مواجهة للآخر، أقرب إلى نوافذ المقصورة في قطار من تلك القطارات القديمة التي لم تعد الشركة تسيّر منها الكثير هذه الأيام. راح ينظر ناحيتي مندمجا في مكالماته وفي تفسير نشاط يديّ، في الآن نفسه. وكانت فرصتي أن أنهي أكبر مساحة ممكنة من لوحتي قبل أن ينهي مكالمته. لكنه سألني بنبرة فضول واضحة بعد أن أعاد التلفون الموبايل إلى جيبه.

" لا بد أن في وجهي شيئا ما جذبك للرسم؟"

ابتسم فلم أدرك أن كان في تعليقه سخرية أم تواصلا ودودا.

"استغليت فقط فترة التوقف". وارتبك صوتي وأنا أفكر باستكمال التبرير فتابعت بقولي: "لا أستطيع أن أبقى مبحلقا في الفراغ مع توقف القطار". ابتسم هز رأسه مم يوحي أنه يتفهم الوضع، إلا أني وجدتها فرصة للمضي قدما في مشروعي بعد استئذانه: "هل لديك اعتراض؟". هز رأسه وأعطى إشارة من يديه "أرجوك أكمل". ففعلت محاولا الانتهاء بأقصى سرعة قبل أن يصل القطار إلى محطته النهائية.

وراح يبحلق في الورق أمامي متتبعا تشكل ملامحه على الورق. أشار بيده صوب الورقة: "سأدفع لك ثمنها بعد أن تنتهي منها". ثم أدار وجهه ناحية النافذة متسائلا: "في أي محطة نحن الآن. هل ستنتهي منها قبل أن نصل إلى ووترلو؟"

" أأنت سعيد فعلا لأنني أرسمك. خشيت أن يغضبك تصرفي؟"

أربكه السؤال فتمتم عدة كلمات قبل أن يرد بشكل مباشر: "واضح أنك رسام محترف". أثارتني نبرة إلاطراء فابتسمت ابتسامة شجعته لأن يكمل " ربما لو أنك استأذنتني قبل أن تبدأ، ربما ما كنت سأقبل". كان يتحدث وبالكاد يرفع عينيه عن الورقة التي أسندتها على الحقيبة فوق ركبتيّ مشدوها نحو وجهه المتشكل تحت أصابعي. "هل تعرف؟" قال، ثم توقف قليلا يبحث عن صياغة مناسبة لفكرته. "القبول بفكرة ما نظريا، أصعب كثيرا من القبول بالأمر الواقع". ثم أطلق ضحكته الساخرة كأنه تفكر في المفارقة التي يتحدث عنها أو كأن ضبط نفسه يتحدث في فلسفة السياسة التي هجرها منذ سنوات طويلة.

حدقت فيه هذه المرة بحرية لاستكمل الرسم، فشعرت أن خطوط وجهه التي بدأت بها البورتريه استرخت قليلا وصارت أقرب لملامح رجل عادي يشبه آلاف الأشخاص. أم أنها كانت كذلك منذ البداية وألبستها أنا تصوراتي السابقة!. في تلك اللحظة توقف القطار في (محطة ستانلي) فصعدت شابة صغيرة كانت تتحدث في هاتفها الجوال فلم تنظر إلى أي منا وهي تجلس بالقرب من جاري.

"تعرف؟ أنا لا أحتفظ لنفسي بأي بورتريه شخصي".

قرأ علامات الاستغراب على وجهي فأكمل شارحا:

" أقصد أنها المرة الأولى التي أجلس فيها أمام أحد ليرسمني على

الورق. لهذا السبب أقول أنني أريد هذا الرسم وسأدفع لك مقابله".

كأنني كنت في حاجة لتعليقه كي تنشل يدي عن الحركة فوق الورق.

كنت أرى أشجار الخريف بأطيافها الدافئة بين البني المحمرّ والأخضر والأصفر، تمر بسرعة مع حركة القطار من النافذة على يمينه حيث يجلس. شعرت لحظتها بأن تأمل جمال الخريف أكثر متعة من مهمة رسم شخص تتصادم انفعالاتي اتجاهه. همدت حماستي فجأة عن البورتريه وأنا أعاني تشوشا في رؤية ملامحه. لو أنه بقي صامتا لنقلته حرفيا إلى الورق، كما تصورته، لكن ملامحه كانت تتغير كلما تحدث.

"هل تراجعت عن المشروع؟"

قال وهو يضحك وأن بدا صوته محبطا من توقفي عن الرسم.

"أعتقد إنني أحتاج لإعادة رسم البورتريه.. على ورقة أخرى".

عقد جبينه وحاجبيه مستغربا وقال وقد ثبّت عينيه على مشروع البورتريه المتكئ على ركبتي: "لماذا الإعادة؟..أنا مقتنع بما أنجزته أنت حتى الآن".

"حقا؟".

كنت أشعر لحظتها بالورطة، وباقتراف ذنب يصعب أن أعترف به علنًا لمعارفي. هل أقول أنني جلست مع المستر ايان سميث وتسارررنا ثم أهديته رسما له؟ وإن كنت مخطئا ولم يكن هو الشخص المعني، فما أهمية أن أهدي شخصا غريبا بورتريها

مسموما بشكوكي السياسية، بورتريها لشخص لا أكن له المودة. أقصد، لم أكنّ له المودة، لأنني في هذه اللحظة لا أشعر ناحيته بأية مشاعر سلبية ولا أحقد عليه، حتى إن كان هو الرجل المعني الذي كنت أكرهه.. فكلانا كبر وفقد أشياء كثيرة منذ ذلك الحين، أهمها العنفوان.

كانت الفتاة قد أنهت مكالمتها فراحت تتابع حوارنا متطلعة بفضول نحو الرسم. ورحت أنا أكمل البورتريه نزولا عند رغبته بعد أن اقنعت نفسي أنني لن أحتفظ به، ولن يتبقى سوى ذكرى الحادثة نفسها.

اقتربنا ببطء من محطتنا الأخيرة فراح هو يتمتم ليحثني على الإسراع.

عندما رفعت الورقة عاليا عارضا عليه البورتريه، أبدى إعجابه الشديد، وابتسمت الفتاة للرسم، أو للموقف.. لا أعرف تماما.

" بكم أنا مدين لك؟"

ثم تناول مني الورقة ملفوفة بشكل اسطواني تمسك بها حلقة مطاطية رفيعة.

"إنها هدية، قد تذكرك بالجانب الإيجابي لتعطل القطارات في بريطانيا".

ضحك هو فأصابني بالعدوى، وإن كنت لا أزال أحمل في داخلي شعورا بالشكوك وبالذنب. ثم نهضنا استعدادا لمغادرة المقصورة. نزلت الفتاة قبلنا بعد أن مسحتنا بنظرة فضولية.

نزل كلانا فقال مودعا:

"أنت كريم جدا ولن أنسى لك فضلك.. هل وقعت باسمك على الرسم؟".

بالطبع. فأنا أفعل ذلك بحكم العادة. اسمي دونالد".

"وأنا اسمي ايان". ثم مد يده مصافحا: "شكرا على البورتريه..سأعلقه في غرفة مكتبي في البيت".

كان الركاب الكثر على الرصيف يتدافعون لحظتها للنزول من القطار أو الصعود إليه، يمسح بعضهم باندفاعته على جسدينا أو على ما نحمله من أغراض. استدار ايان، الذي اكتفى بتعريف نفسه بالاسم الأول، واتجه نحو السلم المؤدي إلى الطابق السفلي حيث الطريق المؤدي إلى خطوط قطارات الأنفاق. وقبل أن ينزل ويختفي عن ناظري، رأيته يتوقف عند أحد الموظفين العاملين بالمحطة ليستفسر عن معلومة ما، وكان الموظف أسود البشرة يرتدي سترة برتقالية من تلك التي تميز الموظفين في المحطة. وراح يشرح لايان ما استفسر عنه، فقد رأيت ايان يهز رأسه مبتسما، وقرأت من حركة جسده ما يشي أنه يشكره، ثم نزل درجات السلم واختفى جسمه عن مدى رؤيتي كأنه لم يكن هنا منذ لحظة. سيطر عليّ شعور غريب ومفاجئ لحظتها، لو أني ألحق به أستوقفه وأسحب اللوحة من يده، لأعيد رسم ذلك البورتريه من جديد.

لندن 2002

البريد يأتي مرتين

إلى ذكرى جميل حتمل "حين لا بلاد" (*)..

اللوذ ببيت وفاء، زميلة الصف وجارتى فى الحي، كان يحمل إليّ المتعة.

بيتها المزدحم بالبنات، والمجلات والقصص المصورة التى يجلبها لهن والدهن الصحافي.

تقرأ بعضها علينا بشرى، الأخت الوسطى بين سبع شقيقات والطالبة التى كانت تهيئ نفسها لدخول معهد المعلمات. تجرّب مواهبها التربوية أمامنا باستعراض مثير. كانت ذات قامة متوسطة وبشرة بيضاء يشوبها بعض النمش ولها شعر جعد بشقرة خفيفة. تقف أمامنا، تتلو فقرات من القصة، ملوّنة صوتها فى علو وإنخفاض، تجعله حادا أو عريضا بحسب سياق النص. بعد سنة بدأت بشرى تشارك فى مسلسلات إذاعية متخلية عن الحكايات

وحلم التدريس، إلى أن تزوجت وهاجرت إلى أمريكا مع زوجها، وبقيت أنا أحب القصّ.

هكذا تعلمتُ حرفة القراءة والكتابة مبكرا، قرأت الرسائل وكتبتها لأم مستوحشة فى غربة البلد الصحراوي. وكانت اصطحبت أبى إلى بلد ناشئ حديثا فى الخليج ، وحيدة فى يومها إلا من أطفال، وزوج يغيب فى الكدّ طويلا .

لا أذكر كيف بدأت الورطة: القص، أو بمعنى أدق إحكام نهايته. أستعيد إحساسا طافيا فاض على روحي، تلبسنى، وقادنى إلى رواية حكاية، إذ لم يعجبنى أن أظل مستمعة دائمة فى بيت البنات .

" أعرف حكايات أجمل" .

تسرعت بالاعتراف وأنا أشير باستعلاء إلى القصص المطبوعة، تلك التى كانت متناثرة فى الغرفة المنشورة فى بيروت والقاهرة. تشبثت وفاء وأختها إيمان التى تصغرها بسنتين بالإعلان المثير الذى طرح أمامهما للتو. كنا متمددات باسترخاء فى نهار عطلة صيفية، هما فوق سرير تتشاركان النوم فيه عادة، وأنا على السرير الآخر الخاص باختين أخرتين تصغرانهما سنا. وكانت المروحة تدور فى سقف الغرفة الصغيرة نسبيا، فتجفف عرق الأجساد دون أن تمنحنا إحساسا بالبرودة. جاء الإعلان المفاجئ ليبعث النشاط فى أجساد خاملة، وكنا بعيدين لحظتها عن رقابة بشرى، الوحيدة فى البيت التى تمنح نفسها سلطة التدخل فى تحركاتنا، وأصرت كلتاهما أن تسمعا مني، وتوهمت أنا لفداحة جهلى أن مهمة الحكى فى يسر الاستماع!.

وكانت حكاية عن أمير وساحرة، أو عن ملك وابنته الأميرة الفريدة الجمال. خلقت الشخصيات، ارتجلت الحوار ورسمت المصاعب، مزركشة الأحداث بالإثارة. وكنت خلال ذلك أستعين أحيانا بذاكرة اختزنت صورا من حكايات جدتى – الجدة التى كانت فى حينها بعيدة مثل قمر– .

إتسعت العيون فى البدء، وفغرت كل من الفتاتين فاها مشدوها. هيمنت عليّ الغبطة: هأنا أجيد ما تفعله الفتاة التى تكبرنا، بل أنى أنهل من خيالى ولا أنظر فى كتاب مثلها.

ابتهجت وزهوت.

حدث ذلك قبل أن تتشعب الحكاية، وينفلت الأبطال والأحداث، انفلات ماء مسفوح لم أعد قادرة على لمه. هل أنهيها كالعادة، بزواج الأمير والأميرة؟.. لم يكن هذا هدفي. وعند متاهة حكايتى فضحتنى عيون مترقبة لنهاية تريح توترها. عيون متشككة من قدرتى على إنجاز الخاتمة، حذرة من راوية لم تكمل براعة ما سردت، لتقفل الحكاية كما بدأتها، بسلاسة. اتهمتنى وفاء بالتلفيق، كأنما كانت تتمنى فشلى لتريح غيرتها من قدراتى التى لا تملك مثيلتها. أصدرت الحكم ثم راحت تتأمل ساقيها اللذين كانا بلونين، أحمر قان ولون أقل بياضا من بشرة بشرى. ساقاها منذ خلقت كانت على هذه الصورة، وحسب رواية أمها أنها اشتهت شراب التوت فى الشتاء ولم يكن متوفرا، وصدف أنها كانت تحك ساقيها، فجاءت الطفلة موسومة بعلامة (الشهوة) .!

انشغال وفاء بتأمل ساقيها، وإلحاح إيمان عليّ بعد فقدان صبرها "وبعدين" كأنها تتهيأ للانسحاب من الحجرة، جعلنى أندفع، وأنهى ما بدأته بارتجال أشد.

ما عدت أروى الآن حكايات ملفقة أضطر لأن استنبط لها الإثارة من خيالي. لدى قصص كثيرة تربكنى وقائعها، وتتركنى حائرة أمام النهايات المفزعة، كموت بطل قصتى "البريد يأتى مرتين". نهاية تراوحت أسبابها ما بين حسرة على فراق البلاد، وقلب متعب ضاق بصاحبه.

منذ أن إستقر فى منفاه الأوروبي. كان بطلنا يحكى لأصدقائه فى رسائله عن وسواسه بالبريد، عن رسائل كثيرة يكتبها متحايلا على وقت طويل، بليد الإيقاع، موحش ومخيف. يكتب لكل من يعرف وينتظر، علّ الموت أثناء ذلك لا يزوره.

كانت ارتدادة الفتحة المعدنية للباب الخارجى للبناية التى يسكن فيها، هى أول ما ينتظره صباحا. بل هى الخطوة الأولى التى يبدأ معها اليوم. يتأخر إيقاع نهاره أو يبكر، بحسب إيقاع ساعى البريد. تعلقت روحه بتلك "التكة" التى تعنى انزلاق الرسائل من الفتحة المخصصة لها. صوت ينمّ عن زيارة أهم شخص فى برنامجه اليومي، يسمعه، فيهبط الدرج مفتشا فى كومة مغلفات ورسائل هى فى الغالب لسكان البناية الآخرين، أو أنها موجهة لرقم شقته مثلما هى لهم: دعوات تبشير وإعلانات ترغيب من شركات البيتزا، ومطاعم هندية وصينية وغيرها.

يسترق النظر بحسد إلى رسائل جيرانه فى الشقة المجاورة: رسائل ورزم لا تنتهي، وبطاقات بريدية مكشوفة تصل من شتى أنحاء العالم. ماذ يفعل الجاران كى يستدرجا كل هذه الرسائل إلى عنوانهما: النبش، مثله، فى عناوين منسية يراجعها فى دفتر هواتفه العتيق؟.. هل يتحرشان، كما يفعل هو عن سابق تصميم، بمعارف كان التقاهم صدفة فى مدن أخرى، يراجع الأسماء بعد زمن ويخمن أنها مرشحة لصداقة محتملة؟

يكتب ويرسل. يكتب عن شهوة العودة إلى الوطن، بعد أن إستنفد حلم البحث عن مكان أقل قسوة من الوطن. يشكو من علاقات تبهت، ونساء يمررن بحياته دون توقف طويل. يحكى عن إمرأة غادرت متدثرة بمعطف القطيعة، يحكى عن كتابة لا تكتمل، وصحبة لا تلتئم إلا نادرا.

يخفق قلبه الآن -داخل المشهد القصصي- وهو يقرأ اسمه على مغلف رسالة أتته من البعيد، وكان عاود الكتابة لصاحبتها قبل أسابيع. "السيدة كلارك"، يقرأ الاسم ويسترجع أحداث معرفته بها بسرعة. يدخل شقته، ويقرر أن يحتسى كوب قهوة ساخنا، احتفاء بالمناسبة: وصول رسالة شخصية. سيمزج القهوة بالحليب كما تفضلها آن، ويضع لها فنجانا أمامه: "فوق طاولة تشرف على طريق له صمت اللوحات الفنية". هكذا وصف لها نافذته مرة فى واحدة من الرسائل. بعد ذلك اقترح، أنا الراوية، شريط "جاز شرقى" لزياد الرحبانى كان يحبه، إمعانا فى طقوس فرحه.

فى الرسالة، غابت آن، تنعيها أمها التى ردت عليه بالنيابة ، وتحكى عن رحيل ابنتها قبل ثلاث سنوات " She's gone آن لم تعد بيننا ، تقول الأم فيكاد يسمع صوت نحيبها.

" ماتت !" .. هل توقف عن الكتابة لصديقته منذ ذلك الحين؟..

انتحرت آن بعد نوبة كآبة طويلة، وتبحث الأم اليوم عمن يشاركها عزاء متأخرا. تسرد تفاصيل كثيرة لا تحتملها شروط القصة، أو ما كنت أتوهمه يصلح لقصة !.

يشغل شريط الذكريات مرة أخرى فى رأسه ويستعيد تفاصيل تعرّفه عليها. كان ذلك فى أمسية ضمتهما فى بار قديم بنيويورك. ذهب إلى هناك قبل خمس سنوات، بعد أن راحت مدينته تطارد روحه القلقة، ملبيا دعوة قريب مهاجر. إلا أنه سرعان ما إكتشف أن المدينة الغريبة الكبيرة، تحمل شيئا من قسوة مدينته، مع اختلاف التفاصيل والكيفية، فشد الرحال نحو أوروبا، متوهما أن عراقة مدنها قد تكون ملجأ طبيعيا للدفء الإنسانى .

قلب المغلف وأعاد قراءة اسم المرسلة: "السيدة إميلى كلارك". إلتقط إسم العائلة فى المرة الأولى وتشوش عليه اسم صديقته آن، المرأة التى أنجبت طفلا من شاب مكسيكى مهاجر، ثم تركها وغادر دون أن يترك خلفه عنوانا، تقول الأم فى رسالتها. رمى المغلف على الطاولة. قام وأوقف كاسيت زياد الرحباني، منصتا إلى صوت آخر بدأ يعلو فى رأسه. كم استهواه الإستماع إلى عازف الجاز الأسود العجوز فى تلك الليلة التى تعرف فيها صدفة على صديقته. قال لها

تحت إضاءة البارالقديم "أنا شاعر"، وقالت أنها تحب الشعر وتستلطف صحبة الشعراء. قرأ لها شيئا من قصائده، فأغمضت عينيها تجاوبا مع إيقاع لغة غريبة "أحب الإستماع إلى الشعر بكل اللغات " قالت وهى تتلفع بحزنها. كانا تفاهما بلغة مركبة هى مزيج من الإنجليزية والفرنسية، وكانت موسيقى الجاز خلفية حميمة لحوارهما. لقاء تكرر مرات قليلة كانت كافية لأن تنضج علاقتهما فتكون على حافة مابين الصداقة والحب. سافر قبل أن تنضج المشاعر، تركها معلقة على الصداقة ووعد أن يكتب دائما، لكن بـ"لغة إنجليزية غير سليمة" .. رددت التعبير بعده موافقة عندما حذرها من الأسلوب الركيك الذى ينتظرها فى رسائله.

تتشوش ذاكرته أحيانا، فيتوهم أن أنين آلة الترومبيت ليلتها كان ينسرب من داخله. وها هو يفاجأ أنه كان لصديقته نصيب من الصوت الناحب، الصديقة التى حكت كثيرا فى ذلك اللقاء الصدفة، عن قسوة المجتمع الذى تعيش فيه. "مادة مادة، ولا مكان للروح" . لم ينتبه ليلتها أنها وهى تحكى عن غربتها النفسية، كانت تتهيأ لمعاقبة البلد بانتحار مناسب، بعد خمس سنوات.

* * *

ماذا بعد تفاصيل موحشة لرجل غريب ينسج خيوطا مع مدن العالم لا تطال مدينته هو؟ "مدينته" ، الشام، مكان يتضّح بدل أن يغيم، كلما أمعن المنفى قدما فى الوقت.

قهوتى بردت، ومشروع الحكاية الواقعية لا يصلح لقصة مكتملة

رغم كل محاولاتى إضافة تفاصيل أخرى خيالية.

فى الجعبة حكايات كثيرة الآن لا تحتاج لنجدة خيال كثير، كتفاصيل حياة هذا الصديق الذى كتب يوما عن وسواس الروح بالمدينة الأولى، وعن عطب شرايين القلب الذى لا يبدو أنه سيصمد طويلا. نهاية حكايته أعرفها، إنما نصى القصصى هو الذى أبحث له عن نهاية غير تقليدية، لا يموت فيها البطل غريبا فى البلد الغريب. أريد أن أهرب من النهايات المأساوية، وها أنا أحار حيرتى القديمة تلك، وأرى أمامى وفاء منشغلة بتضاريس ساقيها وإيمان تهدد من خلال ملامح وجهها بالانسحاب.

صوت "التكة" يناغش الباب الخارجى للبناية التى أسكن فيها. البريد يأتى مرتين فى هذه البلاد الباردة. أترك القلم وأنهض ملهوفة إلى كومة رسائل جديدة أغلبها إعلانات ترويجية، وبطاقة بريدية لساكنى الشقة المجاورة جاءتهم من البعيد.

لندن 1995

«حين لا بلاد».. عنوان مجموعة قصصية للأديب السورى جميل حتمل الذى رحل مبكرا فى منفاه الباريسي

بعد أن تكرر الفعل عدة مرات، قرر أخيرا أن يستكشف غرض هؤلاء الشباب الصغار من توقيفهم المارة في الطريق العام.

كان في عجلة من أمره، والبرد قارس في ليالي ديسمبر اللندنية، قبل أعياد الميلاد بقليل، والساعة تجاوزت الثامنة مساء. لا وقت لديه لأسئلة لا تنتهي من مؤسسات إستطلاع الرأي العديدة في هذه المدينة. لكن تكرار الطلب جعله يشك في الأمر. فلربما كانت للأسئلة علاقة بالحرب التي تلوح آفاقها فوق منطقة الخليج، وهو لم يسمع الأخبار منذ عدة ساعات. هل قررت أميركا أخيرا قصف العراق مع حليفتها بريطانيا؟

أوقفته الفتاة التابعة لذات فريق الشباب قرب محطة أنفاق كوينزواي. استجاب هذه المرة للبادرة، وهيأ نفسه لأن يقول لها أنه

ضد الحصار المفروض على الشعب العراقي، وضد الضربة وضد من يحكم العراق، في الوقت نفسه. فليخرج صوته رقما إضافيا في الإستفتاء أن كان هذا ما يرمي إليه الشباب الصغار.

"هل أنت راضٍ عن حياتك الماضية أيها السيد"؟

اقتحمه السؤال الإنجليزي متداخلا مع لهجات عربية يعج بها الشارع المشهور بتردد العرب سائحين ومقيمين إلى مطاعمه ومحلات الأكل التي توفر وجبات طبخ من الشرق الأوسط عموما. تأمل الفتاة السمراء النحيلة، وودّ لو يسألها إن كانت قد خرجت من قصص الخيال أم من النكات السمجة التي قد يبتسم لها ويمضي في الأحوال العادية، لكن ليس اليوم، أنه في مزاج غير رائق!. لكن الفتاة كررت سؤالها عن الرضا، فعلق بقوله أنه "سؤال غريب"، فضّل أن يقول "سؤال تافه" لا يبرر توقيفها له وإضاعة وقته في هذه الليلة الباردة. ود قول ذلك، لولا لباقته التي يحاول ألا يفقدها في شتى الظروف.

"مؤسستنا معنية بهذه الأسئلة الغريبة يا سيدي".. ردت الفتاة النحيلة السمراء وهي تبتسم بتهذيب كما تم توصيتها من قبل الذين أرسلوها، ولم يشعر أن صوتها يشي بالسخرية منه. ولاحظ أنها تمسك قلمها في حالة استعداد للكتابة، وبصرها معلق به مترقبة حركة شفاهه.

"لا.. لست راضيا عن حياتي الماضية".

وعبر بملامح وجهه مايشي بالتهكم منتظرا ماستفاجئه به

محاورته من تعقيب، ثم سحب نفسا عميقا من سيجارته التي أوشكت على الانتهاء، فتأجج وهجها للمرة الأخيرة.

شخطت الفتاة، متحمسة، بقلمها على مربع صغير فوق الورق.

"أضيفي إسمي للملايين الآخرين مثلي في العالم"..

قال ثم سمع صدى صوته يرتجف قليلا. ابتسم لها وانسحب بسرعة تاركا الفتاة مرتبكة بأوراقها.

كانت بوادر موجة انفعال غريبة قد بدأت تسري في جسده لا تشبه على أية حال قشعريرة البرودة. شيئ له علاقة بالسؤال الذي طرح للتو.

"سؤال آخر أيها السيد؟"

كانت قد لحقت به وبدا عليها الإصرار في تعبئة كل الفراغات المتروكة للشخص المستجوب:

"ماذا لو أن هناك من هو قادر على مساعدتك في تصحيح هذا الماضي؟"

راوده خاطر سريع، أن هذه البنت ذات اللكنة الإنجليزية الفصيحة والعينين الصينيتين الضيقتين، تلعب مع زملائها الآخرين من ذوي البشرة البيضاء لعبة فانتازية. ربما كانوا يحتفلون بالأعياد على طريقتهم الشبابية الحديثة!

"هل فكرت في تصحيح تلك الأخطاء، وإن كانت يسيرة؟"

ألقى نظرة سريعة حوله، حيث الإضاءة الشديدة زينت المدينة

المقبلة على أعياد الميلاد ورأس السنة، فلاحظ أحد رفاقها مشغولا مثلها بأوراقه مع عابر آخر. هل يزجرها وهو الذي يحاول قدر الإمكان أن يثبت لأهل البلد منذ وصوله أنه غريب ومهذب، ولا داعي لأن يشعروا تجاهه بمشاعر العداء!.. لكن أسئلة الفتاة ذات الملامح الأسيوية تجاوزت سذاجة استفتاءات المؤسسات التجارية الكثيرة التي واجهته من قبل،. راهن على صبره وتحكمه في أعصابه.

" ومن هو هذا المتطوع لتصحيح مسار حياتي أيتها الآنسة!"

قال التعليق وابتسم لمرارة بدأت تنتشر بين أضلاعه ضاغطة على رئتيه، بينما راح يلف الشال الصوفي حول رقبته ليرد عنها هواء الليل القارس. أراد أن يشارك الفتاة لعبتها بفضول كي يحكيها لاحقا لأصدقائه، المغتربين مثله في هذه المدينة الكبيرة.

"هناك"..

قالت الفتاة ثم مشت أمامه عدة خطوات لتقوده نحو المكان المفترض.

"في المكتب.. فوق يا سيدي".

لم يزعق بوجهها. لجم غضبه واكتفى بأن رفع يده بحركة وداع معتبرا الحادث ضمن طرائف آخر العام وقرر ألا يلتفت أو يرد على توسلاتها.

بعد عشر دقائق، داخل قطار الأنفاق، وفوق أحد المقاعد المصفوفة بشكل مستطيل ليكون ظهر الراكب باتجاه النافذة، رمى

بجسده المنهك من تفاصيل نهار طويل، وراح يتابع أجساد الركاب الآخرين المستسلمة لاهتزاز العربة وسخونة الهواء المنبعث من فتحات التدفئة. كم واحد منهم ينطبق عليه السؤال.. الرضا عن الماضي؟.. قبل ساعتين، غادر عمله بمنطقة هامرسميث متوجها إلى شارع كوينزواي، ولم يكن لديه من غرض سوى تحويل المبلغ الشهري لأهله في البلاد البعيدة المحكومة بالحروب والكوارث. فمن أين خرجت له تلك الجنية بأسئلتها الغريبة التي ستظل على ما يبدو لغزا طريفا يحّوم في ذهنه؟. لم يسألها عن شركتها التي أرادت أن تصحبه إليها. أي عمل بعد الثامنة مساء؟.. قالت له "فوق"، فاستعاد حذره من مخاطر مخبوءة في هذا البلد الغريب. لكن هل ابتعد عنها لهذا السبب؟ تأمل الاستفسار الذي وجهه لنفسه وكاد يهز رأسه مثل الذين يكلمون أنفسهم في المدن الكبيرة. لا. ما كان سيتبعها حتى لو كان موقع المكتب على الشارع العام. ربما أنها تعمل لصالح شركة تأمين، خمّن بعيون ناعسة، أو ربما أن شركة استثمار تشغّلها ورفاقها لالتقاط رواد شارع يكثر فيه السائحون العرب متخيلين أنهم كلهم أثرياء . هل أنت راضٍ عن ماضيك؟.. سألت البنت النحيلة ذات الأصول الأسيوية البعيدة. ما أغربه من سؤال في الصميم لا يطرح عادة سوى بين أطراف حميمة تعرف بعضها البعض منذ زمن لا بأس به على الأقل!..

توقف القطار عند محطات عديدة فردد الصوت التقليدي الصادر عبر الميكروفون محذرا: mind the gap انتبه للفجوة..

جملة مسجلة تنطلق عادة في أنفاق القطارات لتنبيه الراكب إلى مساحة الفراغ ما بين القطار والرصيف عندما يهم بالنزول. "انتبه للفجوة" . . وشعر أن حياته هي المعنية بهذا النداء أو التحذير المتضامن لحظتها مع "حشرية" فتاة شارع كوينزواي وأسئلة مكاتب استطلاع الرأي.

بعد ثلاثين دقيقة، وكان القطار قد أفرغ غالبية ركابه، لفت انتباهه خيال منعكس في الزجاج المعتم أمامه لرجل عجوز. "أهذا أنا؟" . . ونظر حوله بذعر ليتأكد بعدها من أن ظل الأكتاف المحنية والرقبة الغارقة مع الرأس فوقهما، يتطابقان مع جسده. ثم لاحظ، أن الصحيفة التي كان قد أخرجها من حقيبته ليقطع بها ملل الطريق، لا تزال مطوية بين يديه. في الحقيقة كان ذهنه قد شطح به عشرين سنة إلى الوراء، حيث مطلع الشباب والأحلام المتحرقة للتحقق. هاهو بعد أن قطع كل هذا المشوار الزمني، تشردَ بين بلاد الله الواسعة وعمل في أكثر من بلد، انتهاءً إلى هذه المدينة الكوزموبوليتانية، ها هو يبدأ من درجة الصفر. أهو قدر الغرباء؟ . . "بعضهم فقط" . . صحح لنفسه المعلومة وتذكر غنائم كثيرة حققها غيره بأساليب لا يقوى هو عليها بطبيعته!.

ألقى نظرة ثانية شيّع فيها الخيال الهرم المنعكس أمامه، ثم نهض وهو يشد من قامته ليعيدها ملائمة لسنوات عمره الحقيقية، مستعدا للنزول في محطته القادمة.

بعد خمس وثلاثين دقيقة على رحلته، كان يصعد السلم

الكهربائي ويغادر محطة غرينفورد غرب لندن القريبة من بيته.

لفحه هواء الليل البارد، فانتبه الى أنه نسى شاله الصوفي في القطار. أشعل سيجارته وسار بإيقاع أكثر بطئا عما اعتاد عليه، ولم يكن يلف رقبته المرتجفة سوى سؤال حارق ألقي أمامه قبل قليل، ومن مؤسسة معنية بإجراء الإستفتاءات ذات الأسئلة الغريبة.

لندن 1997

نهار الانقلاب.. عصرا

لم يكن بيت الخوجة أم سناء بالواسع ليحتمل أطفالا كثر، لكنها مع ذلك، حولّته إلى مركز يستقبل أطفال الحي، هؤلاء الداخلين نحو عطلة مدرسية تمتد لثلاثة شهور، إذ لم تكن مدارس الأطفال الصيفية في سنوات الستينات توافق على وصول سياراتها إلى منطقة التل المرتفع، في أحد أحياء مدينة حلب التي توسعت خارج المدينة القديمة.

خمس ليرات على الرأس.

هذا ما كان الأهل يدفعونه كل يوم خميس، مقابل أن تضبّ أم سناء صغارهم في بيت عربي مكون من غرفتين واسعتين، وغرفة صغيرة لها فتحة حجمها أقل من نافذة بالكاد تسرب بعض الضوء وشيئا من الهواء.

وأصغر الغرف هذه هي في الأساس مكان لحفظ المؤونة، يكدس فيها أهل البيت ما يدخرونه للشتاء من مواد غذائية بعد أن يتوقف زوار الخوجة من الأطفال عن المجيئ إلى بيتها. لكن في الصيف، كانت الغرفة تتحول إلى مأوى لما لا يقل عن عشرة أجساد نحيلة، ينحشر فيها الصغار لحظة إلتهام الشمس لمساحة صحن الدار المفتوحة على السماء.

في أحد تلك الأصياف البعيدة، قررت أمي بناء على نصيحة من جدتي، أن تلحقنا نحن أطفالها الأربعة ببيت الخوجة الذي يقع في حي قريب، كي تريح العائلة الكبيرة في عددها، من ضجيجنا. حرنت ورفضت قرارا يشملني مع الصغار المشاغبين، بينما أنا في الحقيقة طفلة هادئة لا تشكل إزعاجا للكبار. لم ينفع الاعتراض أمام قناعة أمي في أن وجودي مع أخوتي ضروري للاعتناء بهما، بصفتي بكرها العاقل !. هكذا قضينا أنا وأخوتي، الصيف في تلك السنة، ونحن مجرد زائرين للمدينة التي هاجر منها والداي قبل سنوات قليلة، باتجاه الخليج.

كان لدى أم سناء عدّة متكاملة لضبط رواد يومها: جسم ممتلئ بعظام قوية، وعصا رفيعة تسند بها "بصريا" تهديداتها. أما الأكثر إزعاجا من هذه وتلك، فصوت حاد لاسع، يلوّن زعيقها بمفردات لن تعدم إضافتها إلى قاموسها الشتائمي كلما استضافت جيلا جديدا في العطل المدرسية الصيفية عبر الأعوام التالية.

كنا نغادر البيت، جرّا، في الصباح، وجوهنا منقبضة ونحن

نتأبط بعض كتب القراءة والحساب، فهذه وصية الأهل: أن تهيئ ابنتا الخوجة المراهقتين أولادهم للعام الدراسي المقبل. كانت تلك على الأكثر مسؤولية رجاء، الابنة الصغرى، ورجاء كانت ذات ملامح منسوخة عن أمها، وجه عريض وبشرة بيضاء ينتشر فوقها النمش. أما شعرها فهو جعد كستنائي اللون، تتميز به عن أمها ذات الشعر المصبوغ بالحناء السوداء لتخفي الشيب المشتعل في رأسها. تستهل رجاء القراءة بفم كبير وشفاه عريضة، وحين تبدأ التعليق والتأنيب، يزعق صوتها الذي يوهمنا أحيانا أنه صوت أمها الخوجة.

وعلى الرغم من ملاحقات رجاء المكثفة لنا للدراسة، متلبسة شخصية معلمة مدرسة، كنا نقرأ قليلا، ونلهو أكثر مع مراهقة تكبرنا ببضع سنوات فقط تيّاهة بسلطتها علينا، وكأن بعض هيبتها استمدتها من ذلك الشبه مع والدتها.

إلا أن سناء، الابنة الكبيرة المنشغلة في أعمال البيت، هي التي كنا نتابعها بأعيننا، فهي الأجمل، نحيلة، وذات شعر أشقر محمر. تروح وتجيئ طوال اليوم، بخفة قطتهم "شامة" التي تكون مجالا للهونا أحيانا. تدخل سناء إلى غرفة الضيوف فتضع شريطا غنائيا كبيرا في المسجل، أو تحرك مؤشر الراديو علي محطة تبث الأغاني. لكن الخوجة ما كانت تتركها لنشاطاتها تلك وسرعان ما تكرر نداءاتها الغاضبة طالبة منها أن تخرس أصوات المغنين. ينخفض الصوت مؤقتا ويعاود الارتفاع في سهوة الأم، كي تتمكن سناء من

سماع أغانيها المفضلة وهي تنجز أشغالها في المطبخ بعيدا عن أجهزتها الموسيقية العزيزة. في أوقات أخرى كان صوت الخوجة يعلو ليلطّ جسد الشابة التي كانت تميل لارتداء أثواب خفيفة هفهافة، لونها على الأغلب من اشتقاقات الأحمر. "ما بيجوز وحرام جسمك مكشوف" ينبهها صوت الأم معنفا إلى وجود أطفال ذكور "يفهمون كل شئ" تؤكد الأم وتنتظر من ابنتها أن تفهم ما تعنيه بالكلام المبطن، فترد سناء بنزق وهي تنفض صدر الثوب بيدها منزعجة من الحر مبررة لبسها الأثواب الخفيفة "شوب يامو شوب"..

وتكمل حركتها التي قد تحط بها أحيانا بين الصغار، تسمّع درسا لأحدهم، أو تخترع لعبة جماعية تثير الإبتهاج في المكان الضيق. تنهر أو تبتسم، فيلمع السن الذهبي في فمها كأنه خصلة من شعرها.

في بعض الأوقات تنشغل عنا البنتان، ويتجهم النهار الطويل الذي يبدأ في التاسعة صباحا وينتهي مع آذان العصر. نهار يمرّ ببطء، حتى مع محاولة أم سناء إشغالنا بشؤونها البيتية حين تجمعنا حولها، مفترشة طرفا من الحوش الذي يتوسط حجرات البيت، وتوزع علينا ما يمكن أن تسهم به الأيدي الصغيرة من انتاج، كأن نساعدها في قطف أوراق الملوخية والنعناع.

في لحظات الاستراحة، تحمل الخوجة من خزانة غرفتها أواني زجاجية تشف عن سكاكر ملونة و"دقة قضامة" المكونة أساس من طحين الحمّص وبعض التوابل، أو تلك التي تنتصب فيها مصاصات

حمراء وسوداء بطعم نبات عرق السوس، إضافة لأنواع السكاكر الملونة التي كانت بأشكال مختلفة مثيرة للعين واللعاب معا، قباقيب وزهور إلخ. تصفّ الأواني المغرية أمامها وهي جالسة على فرشة خفيفة فوق أرضية الدار المكشوفة على الفضاء، عادة البيوت في تلك الفترة والمبلطة ببلاط ذي نقشات صغيرة بنّية. تفتح أغطية الأواني، فيسيل اللعاب ويهجم الأطفال هجوم الذباب. تزعق، فيرتدون قليلا، تستفسر عن الطلبات التي تبدأ من نصف فرنك، ثم تضع ما يحتاج إلى لف، في ورق مستعمل من دفاتر رجاء المدرسية. تسلم الطلبات وتستلم مقابل ذلك فرنكات قليلة حملها الصغار كمصروف يومي، من دون أن تنسى إرشاداتها التي تحذر روادها الصغار من توسيخ المكان.

* * *

نادرا ما كانت أم سناء تترك الدار، لكنها في بعض النهارات تغيب بعض الوقت وتعود محمّلة بأكياس نايلون كبيرة، تجلبها من معمل لقمصان النوم يخص أحد معارفها. تجلسنا حولها، وتطلب منا ربط قصاصات قماش البرلون الملونة الرفيعة بعضها ببعض. ثم تقوم هي بلف حبل القصاصات على شكل كبكوب، لتحيك منه بصنارة الحياكة سجادا صغيرا متموج الألوان يصلح للمدّ في الصيف. بعد ذلك تحمّلنا بعض نتاجها إلى بيوتنا، كي نعرضه على الأهالي. "من يشتري فليحضر المبلغ معه غدا".. تذيّل طلبها بهذا التأكيد، مختتمة توصيتها بجملة تدمدم بها كأنها تتحدث إلى

نفسها : "أنا أرملة ومسؤولة عن تنتين صبايا" . . وفي الغالب ، كانت محاولاتها الترويجية تنجح ، وتقبل على مضض بالمبلغ الذي قرره المشترون .

إنشغالات متفرقة والوقت يمضي ببطء في بيت الخوجة أم سناء ، كأن أمهاتنا متحكمات بمضّيه كي يستثمرن أقصى ما يمكن من زمنه بعيدا عن حضورنا غير المرغوب به في ثنيات النهار .

أما داخل معتقلنا اليومي ، فوحدها مضيفتنا تجيد استغلال وجودنا . إضافة إلى كل المهمات السابقة ، كانت تستخدمنا للاطلاع على أخبار الحي مستدرجة ألسنا صغيرة على البوح بخصوصيات عائلية .

"كيف كانت زيارتكم أمس الى بيت الأقارب ؟" فاجأتني مرة بهذا السؤال . وكانت أمي قد طلبت منها في اليوم السابق أن تسمح لنا بالعودة مبكرا كي نصحبها في زيارة . أربكني سؤال الخوجة ، وغمغمت ببعض الكلام . راحت تسأل عن حضور السهرة ، فهي تعرف أفراد العائلة إلى حد ما . فأجيب ببطء شديد ، كأنما لأمنح ذهني فرصة المراوغة من حصارها .

"خالك كان موجود ؟" .

"بقت" البحصة وأفصحت عن فضولها . هززت رأسي بالنفي . فعلت ذلك متلافية نظراتها كي لا تفضحني عيناي ، مدعية الانهماك بربط قصاصات البرلون فلم أجب على تساؤلاتها الملحة .

"صغيرة الجن والله بتحفظي السرّ . كم عمرك الآن ؟" . رفعت وجهي

ببطء . . "سبعة" . خرج صوتي مبحوحا يشي بتورط صاحبته بنقاش خطر . "سبعة ؟ . . واعية وأكبر من عمرك يا صغيرة الجن !" . . ردت بنبرة من لم يشبع فضوله ، بينما كنت أنا لحظتها أتحصن بحذري وبتوصيات مشددة حول خطورة إعطاء أية تفاصيل عن القريب المختفي بعيدا عن العيون .

"لو يحط عقله براسه خالك ويبطل سوسة السياسة" . .

كشف فمها الواسع عن سن مذهّب ، ليس له بهجة بريق السن المذهب في فم سناء الجميلة . ثم وجهت نظراتها باتجاه ابنتيها متحسرة وهي تقول : "ضروري أهله ينصحوه يلتفت لمستقبله . . شاب مثل الوردة مضيّع حاله بالسياسة" .

* * *

لحظة الإنعتاق والفرج من ذلك البيت كانت معلقة بآذان العصر ، نقيس اقترابه بمدى محاذاة الظل لنقطة معينة في أرض الحوش كنا نعتبرها نقطة الحسم على اقتراب الفرج وانطلاق أذان العصر . كلنا كنا ننتظر انطلاقته حتى الخوجة التي يفضحها صوتها بين حين وآخر متسائلة "ما أذّن لهلأ ؟" .

صوت مؤذن العصر كان ينطلق كأحلى أصوات النهار ، أتتبع ميقاته مسبقا فوق الرزنامة الورقية المعلقة على الحائط في غرفة جدي . أحدق بالورق الأبيض المقطع بحسب الأيام ، أقلبه بحثا عن دقيقة فائضة يتأخر فيها آذان العصر عن اليوم السابق مع بطء انحسار ساعات النهار الصيفي .

يتسلل الآذان المنغّم من مآذن كثيرة، بعيدة وقريبة، لكننا نعتمد على أولها كمؤشر لنهاية اليوم في بيت الخوجة، ويكاد يخيّل لبعضنا، بسبب لهفة الترقب، سماع أصداء تلاوته، ثم يتكشف الصدى عن مصدر آخر غير صوت المؤذن.

تنطلق أصوات المؤذنين من جهات عديدة فتخترق عرقا تفصّد في حمأة الظهيرة، وتجدد النشاط بعد خمول الضجر. مع تلك الأصوات، يتحرك مشهد الختام اليومي بارتباكة السيقان الصغيرة وهي تبحث عن أحذيتها المصفوفة بمحاذاة درجات قليلة تقود إلى الباب الخارجي في أرضية الدار، حيث تتدافع الأجساد نحو باب حديد أسود ثقيل يئن عند فتحه.

عندما يُؤذن للعصر، نلهف بروح الأسرى المحررين للوصول إلى البيت. وهناك، يتلقفنا تعليق مندهش من أفراد العائلة الكبار: "مضى النهار بسرعة!"..

دائما كانت الأسباب متوفرة في النهارات لغضب الخوجة. فإن علت ضحكات متواصلة غير مفهومة لها، تخرسنا بصوتها. أو حاول طفل التملص من مساحة البيت المحدودة، ومدّها نحو الدرج المؤدي للسطح، تصيح بولولة: "إنزلوا ياقرود"..وتهب إحدى البنتين باتجاه السطح لردع المتمرد.، ويرتبك البيت فزعا من احتمال إلحاق الضرر بالخضروات الصيفية المفتوحة على أرضية السطح للتجفيف: باذنجان مملح، بامية، رب البندورة، فستق، ملوخية، مربى المشمش. خارطة ألوان تتغير تفاصيلها طوال الصيف على

أسطح بيوت أهل المدينة، بحسب موسم نزول الخضروات وبحسب هبوط أسعارها.

كان مسعود أكثر الرواد الصغار إثارة لحمم صاحبة البيت، خصوصا أنه لم يكن يكف عن إزعاج القطة "شامة" أو الأطفال الآخرين، بيده ولسانه معا. وعندما وصل شرّه حد تخويفنا من الأشباح قائلا أنهم يتسللون في غيابنا كل مساء إلى غرفتنا الصغيرة، غرفة المؤونة، ترجم طفلان مشاعر الرعب، بالتبول. كنا غفونا قليلا بعد أن إلتهمنا ما معنا من زوادة الغداء، واصطفت أجسادنا مثل أسماك السردين جنبا إلى جنب. زاد التصاق الأجساد في تلك الظهيرة، بعد روايات مؤكدة وواثقة من مسعود عن مخلوقاته الغريبة. "أشباح وعفاريت قد ينتقمون منا في أية لحظة لأننا نحتل مكانهم الخاص، هذا الذي يرتادونه ليلا بعد أن تغفو العيون". قالها وغفى هو قرير العين في قيلولته كأي شرير من عالم البالغين، بعد أن جعل أعيننا تتجمد على فتحة النافذة الصغيرة.

"أشباح يا جنّي!". زعقت أم سناء وهي تلطّه على رجليه بعصاها بعد أن اكتشفت تبول الطفلين في المكان. "ليش إنت تركت شي للجن؟".. كانت تؤنب وتضربه في الوقت نفسه، وهي من المرات النادرة التي تحول بها الخوجة العصى من التهديد إلى التنفيذ العملي، غير متوقفة عند استرحام مسعود وهو يردد "والله بطلت".. توقفت ذراعها عن الضرب إلا أنها أصرت أن تجعله يغادر مطرودا حتى قبل أن يؤذن للعصر. "هيك سعدان ما بحويه عندي

ولو عطوني عليه عشر ليرات" . .بانت إندفاعة أسنانها وبدا فمها أشبه بمفتاح المعلبات وهي تلهث غضبا. لم تتحمل أنه تسبب بنجاسة المكان بالبول، المكان الذي سيتحول إلى مستودع لمؤونة الطعام بعد أسابيع قليلة، عندما يطل الخريف ونتسرب كلنا إلى أماكننا التي وفدنا منها.

ودعَنا مسعود بنظرات هي خليط من التشفي والحزن معا، فهو مهما إرتكب من تحرشات، كان يسلينا ويدفعنا للضحك. وبعضنا خلط نظراته بالحسد، فقد تخلص رفيقنا، ولو مطرودا، من هذا الضجر اليومي الذي يسمى بيت الخوجة.

إلا أن مسعود ما كاد يخطو خارج البيت حتى رجع بسرعة ولم نكن صحونا بعد من خضّة حادثة طرده.

أعلن بصوت فزع عن وجود شرطة "بيخوفوا" خارج باب البيت !. نزعت أم سناء فردة الخف، وكادت ترميه بها من باب غرفتها، لكن إجهاشه بالبكاء هذه المرة وجموده في محله، أوحي لها باحتمال صدقه. فزّت رجاء التي كانت تجلس على عتبة الغرفة، وهرعت باتجاه الباب الخارجي لتعود بالخبر اليقين. "عسكر. عسكر يا إمي" . . سرب لنا صوتها فزعا لا ندرك ماهيته. لكن طالما أن الأم وجمت، وسناء خرجت من مكمنها بعد أن أوقفت شريط فايزة أحمد لتستطلع سبب الارتباك، فهمنا أن الأمر الآن ليس مزحة شبيهة بمقالب مسعود.

تسللت الأم والبنتان، بعد أن غطين رؤوسهن، إلى درج السطح،

لم يتجاوزن الدرجة الأخيرة، ومنها رحن يتلصصن على مشهد الشارع من فوق الجدار القصير. وبدا أن ما شاهدنه يثير فزعا أكبر من حدود الخبر الأول. جمعتنا الخوجة في حجرة الضيوف ونادرا ماكان يسمح لنا بتخطى عتبتها، كأننا هناك أكثر أمانا. فعلت ذلك بعد أن مدّت بساطا من تلك التي تحيكها على الأرض كي نجلس عليها، إذ لم تكن لتسمح لنا بالإقتراب من مقاعد تبدو قديمة وفاخرة، حتى في ظرف كهذا يمور بالرعب. فتحت سناء جهاز الراديو الكبير، فتسلل صوت موسيقى وصفتها سناء بأنها عسكرية. "إذاعة لندن" . . حثتها الأم بصوت متلهف كي تغيّر مؤشر الراديو. وعند المحطة المطلوبة سمعنا دقات ساعة مميزة عرفنا بعدها أنها ساعة بيغ بن وانطلق صوت رصين يقرأ نشرة الأخبار باللغة العربية الفصحى بدأها بخبر الإنقلاب العسكري في سورية. "إنقلاب !" . شهقت البنتان، فاحتدت الأم بسبب علو صوتيهما وأمرتهما بالخرس. إنقلاب. لم تكن المفردة قد دخلت قاموسنا اللغوي كأطفال بعد، وكان علينا أن نكتفي بمتابعة تخمينات وتكهنات تتبادلها النساء الثلاث، لنعرف أن دلالات الكلمة أخطر مما تتصوره أذهان صغيرة لم يتعد عمر أكبرها التسع سنوات، وأكبرنا هو مسعود، الذي تخلى عن تعليقاته المشاغبة وقبع يتابع الأحداث بصمت وخوف.

* * *

إنطلق آذان العصر يومها، فلم تسرع الأقدام الصغيرة نحو باب

الحرية. تساءلت البنتان كيف سيعود الصغار إلي بيوتهم؟ فردت الأم أننا باقون لحين حضور أهلنا. "الصغار أمانة في عنقي". أشارت ناحيتنا بنبرة صوت حانية لم نتعودها منها.

مع تحرك مؤشر الراديو بين المحطات، راح يتردد بين آن وآخر البيان الأول بصوت صارم.

"الله يلعن أبو السياسة"..

قالت أم سناء بصوت غاضب وخفيض، فزاغت عيناي بسرعة باتجاه آخر، وشعرت بملمس الأرض باردا تحتي، كأن البساط الصيفي لا يفصله عني. لقد قرنت الخوجة قريبي مرة بالسياسة، فهل هو مذنب الآن.. وهل أنا وأخوتي أيضا مذنبون بسببه؟.. تداخل ثقل أصوات البث الإذاعي مع خوفي، وبدأت أتحاشى النظر إلى أي واحدة من نساء البيت. – في الأيام التالية عرفت أن خالي بقى ملاحقا ولم يكن من أهل الانقلاب–.

مضى وقت قبل أن يطرق أحد من الأهالي باب بيت أم سناء. ثم جاء شاب صغير ليصطحب شقيقيه. أدخلته الخوجة، على غير عادتها في الأيام العادية، بعد أن غطت رأسها وأمرت ابنتيها بالشئ نفسه. بدا الشاب مرتبكا من العسكر الذين سيطروا على الطريق وقال أن منع التجول سيبدأ بعد قليل. رجته أم سناء أن يصحب معه من هم على دربه، وكنا نحن من نصيبه.

خرجنا مسكونين بالفزع إلى الطريق الذي سيبقى ردحا من الزمن مكانا لقيود لم نعتد عليها من قبل. رافقنا صوتها "في أمان

الله" وبقيت واقفة تطل من فتحة الباب وقد لفت رأسها بغطاء الصلاة الأبيض، ممسكة به عند الرقبة كي لا ينفلت. أدرت رأسي إلى الخلف أستمد من وجهها التشجيع، وخمنت أنها كانت تقرأ سورة قرآنية لأنها نفخت فمها محرّكة رأسها باتجاهنا.

" تحركوا بسرعة".. صاح بنا جندي وهو يومئ ببندقيته البشعة يحثنا على المضي. تعثرت قدم أخي الصغير وسقط على الأرض، إلا أن الجندي ظل ينظر إلينا بصرامة زاد من حدتها إرتداؤه خوذة معدنية.

كان الوقت عصر نهار صيفي حار، والفرصة مناسبة لمغادرة أطفال ضجرين بيت الخوجة، للمرة الأخيرة في ذلك الصيف. عصر ذلك اليوم لم تدفع أقدامنا الصغيرة الباب الحديدي ذا الحبوب النافرة في بيت جدي ولم ندخل بضجيج الحرية. كان الباب ساخنا عندما لكزناه بأيدينا، بهدوء، فأنّ وهو ينفتح بصوت مبحوح. لم يندهش أحد من الكبار من مضي الوقت بسرعة عندما دخلنا. لقد تغيّر إيقاع البلاد منذ ذلك الحين.

لندن 1998

حلم بنت عيلة

"لن يتعدى موعد ولادتك منتصف شهر شباط".

قالتها عمتي بيقين شديد وهي تقرض مجروش الثلج الممزوج مع شراب البرتقال الذي قدمته لها قبل دقائق. أطلقت تنهيدة طويلة تشي بسعادتها من البرودة المتسرّبة إلى جوفها، بينما كان وجهها لا يزال يحمل حمرة سخونة الشمس وقد مضى ما يقارب العشرين دقيقة على دخولها البيت. عمتي قررت زيارتي بعد أن عرفت بخبر الحمل من أحمد عندما مرت عليه مساء أمس في محله بسوق إسطنبول في "المدينة" (*).

"لو شفت مقدار الفرح على وجه أبو فادي". رشفت من الشراب قاطعة حديثها، واستبقت بعض الثلج في فمها، ثم أعادت الكأس إلى الطربيزة أمامها، متابعة:

"حقه أن يفرح. لم تنجبي له سوى ولد واحد".

"ثلاثة!"..

"البنات غير محسوبات من الخلفة فمآلهن لرجل غريب".

قالتها بحدة تعودتها منها ثم إلتقطت مجلة كانت قربها، وراحت تحركها كي تجلب لها المزيد من الهواء. "مراوح القش القديمة لا عوض عنها، هذا الجيل لا يحبها".

لم أكن مهيأة نفسيا لزيارتها، وأكثر ما كنت أحتاجه اليوم صحبة الصمت. إلا أن عمتي كانت قد كثفت علاقتها بي بعد وفاة والديّ، فأنا البنت الوحيدة بين ثلاثة ذكور، وهي أورثت نفسها سلطة عليّ وحلت محلهما، حتى من دون طلب مني.

" موعد ولادتك سيكون مناسبا، بداية الربيع، هذا أفضل لإدرار حليبك".

نفضت قميصها القطني الأبيض من ياقته، فبانت مساحة أكبر من تجاعيد رقبتها وصدرها. نظرت إلى المروحة السقفية "علّيها شويّ"!..

تعاني عمتي من هبات ساخنة في جسمها منذ دخلت سن اليأس قبل ثلاثة عقود، وهي هبّات تزيد مع حرارة الصيف وتجعلها عصبية المزاج.

"صحيح مين قال شوب تموز.. والمصيبة أن يتعطل المكيف عندكم. اتصلوا بالمصلح.."

قاطعتها لأوقف سيل الأوامر والنواهي:

"اتصلنا وقال إنه سيمر اليوم".

"وينو لهلأ!.. شباب ها الأيام بضلوا مدفوسين جنب نسوانن للضهر"..

كانت تتطلع بتململ إلى المروحة السقفية التي كانت تتحرك ببطء. "بنتي عليها شوي". نهضتُ مرة أخرى مستجيبة لطلبها وأنا غير متحمسة لهوائها الصناعي، وخطر لي أن فتح التلفزيون في هذه اللحظة سيكون فكرة جيدة لإشغال عمتي عني. كانت قد رفضت الدخول إلى صالون الضيوف بحجة أنها ليست غريبة. قالتها بإصرار، وأدركت أنا قصدها، فهي تفضل الجلوس دوما حيث يوجد التلفزيون.

"المسلسل اليومي في القناة المصرية مؤثر. بتابعيه؟".

"لا أفتح التلفزيون عادة في النهار".

أجبتها بصورة آلية وذهني منشغل بالخبر الذي سرّبه مسؤول المختبر لأحمد. كنت أجريت اختبار البول قبل يومين، على أثر شعوري بأعراض غريبة في جسمي. ومع يقيني من أن النتيجة سلبية، أردت حسم الأمر فقط، لكن مدير المختبر قريب زوجي، أكد الخبر، بشرّه وقال أنني حامل!.

"اللعينة نسبت طفل غريب لزوجها!"..

علقت عمتي على المسلسل التفزيوني وقد أدارت وجهها نحوي، فضبطتني بعينيّ الزائغتين.

"كأنك منزعجة من ها الحَبَل"؟..

هززت رأسي بالإيجاب.

"هذا اسمه جنون، حبلت أنا بسبعة، وأمك بأربعة، ما عدا اللي سقطناه. أمك ما كان يعيش لها أولاد كتير. كان عندها قرينة!".

قالت بحدة وأدارت وجهها مرة أخرى باتجاه المسلسل. تذكرني نبرتها الحادة بنبرة زوجها في الحديث، الزوج الذي رحل قبل عشر سنوات وكانت ترتجف من قسوته.

"ماشربت قهوتي اليوم"..

أسعدني إيحاؤها، فنهضت باتجاه المطبخ القريب من غرفة الجلوس. سأرتاح قليلا من تعليقات لا تقبل المساومة، أوامر حفظتها وتلقتها هي من دون نقاش وتعيدها عليّ بذات الصيغة. لو أنها تسارر، كنت فضضت لها قلبي وألقيت أمامها بتشوشي الذي لا أجرؤ على مفاتحة أحد به.

لو أن أمي لا تزال حية!

ربما كانت صدمتها المفاجأة، لكنها كانت ستسمعني من دون إتهامات. أمي الضعيفة، المستسلمة لأبي وأهله، ولكل من أحاط بها. أمي التي لم تعرف الصراخ يوما ولا الرفض. كان تهديدها لنا يثير ضحكنا ويجعلنا نمعن بالذنب والمخالفة، بينما كان وجود أبي الحازم في البيت، تهديدا بحد ذاته وتحذيرا لنا بالتزام الهدوء.

تجمعت الرغوة على وجه القهوة وهي تغلي ببطء. سكبت بعضها في الفنجان لأعزلها وأحافظ عليها كما تحبها هي، " قهوة بوش "، وإلا سيتضح الإمتعاض على وجهها، عمتي! قلت لنفسي

وابتسمت وأعدت الركوة مرة أخرى لتغلي على نار هادئة.

لن يطول الأمر وستواجهني مرة أخرى. ستحاصرني بالأسئلة، وأنا أجبن من أن أبوح لها بما في رأسي. هل أحكي لها عن الرجال الذين يزورونني، عشاقي الليليين، أحبتي المفتونين بي؟ ازدادت خفقات قلبي من الفكرة وشعرت بسخونة خديّ. فكرة مجنونة.

فارت القهوة وانتشر اللون المحروق على سطح البوتاغاز الأبيض. اشغلت بمسح البن الرطب قبل أن يجف. أنجزت ذلك بجسد بدأ يظهر إنهاكه ورغبته في الجلوس. منذ سنتين وأنا أنجز أعمال البيت بدون ملل، أفعل ذلك كأنني أطير. قبلها، كنت على وشك الانهيار وقد التف حبل الضجر حول رقبتي وكاد يقتلني، لولا أحلامي التي بدأت تنتج الأحبّة الهائمين. أغلق الباب صباح كل يوم خلف أحمد والأولاد. يذهبون جميعا وأبقي وحيدة أستعيد تفاصيل الليلة السابقة، أنا وهو بمفردنا، زائر الليل الفائت! لا أحد يرانا. لا الجارة المتلصصة على هسيس الأصوات في البناية، ولا المعارف والأقارب الذين ينبعون في الشوارع وفي كل مكان. أنا وهو بمفردنا، الرجل الذي يأتي بألف لبوس ولبوس، يتشكل بملامح جديدة من حلم لآخر. الرجل الذي أحمل به كل ليلة على شكل حلم. الغريب أنني لا أعرف حقيقة غالبية عشاقي، ليسوا من بين الأشخاص الذين التقيتهم من قبل، وقلة منهم كانوا نجوم سينما وتلفزيون يحبّون بطلاتهم في المسلسلات والأفلام برومانسية.

ما يتبقى من زوار الحلم الغرباء لمسة واحدهم و"حنيته" عليّ في

الليل، وانسى أى تفصيل عدا ذلك. أنسى تفاصيل المكان والهيئة الجسدية وأحداث الحلم. كأن الزائر من غير ملامح. كأنه طيف سماوي مرسل من الملائكة، او كأنه أحد الملائكة، أو ربما مخلوق آخر لا يهمني أن تسلل من سابع بطن في الأرض أو من سابع طبقة في السماء، تكفي زيارته المشحونة بعاطفة الحب.

في اليوم التالي للحلم لا أنتبه إلى كيفية انتهائي من أعمال البيت المملة. أستعيد بهجة أحلامي وأتحرك في البيت كأني فراشة أو عصفور صغير. حال كان يذكرني بحال أمّون، المرأة التي سكنت حارة القديمة حيث عاش أهل أبي. أمّون، التي حكوا أن من خاوتهم من الجن، كانوا ينجزون لها أعمال البيت بلمح البصر. وعمتي شهدت مرة أنها زارتها مبكرا "وكان البيت يضوي مثل لؤلؤة، الغسيل على الحبل والطبخة جاهزة".

* * *

"بلغت بنتك؟"..

كانت عمتي تعني ابنتي علا التي أحضرت لها للتو سجادة الصلاة لتصلي الظهر بعد أن انطلق نداؤه من الجامع القريب.

"ليس بعد".

أجبتها ولم أنظر في وجهها بينما كنت أضع الصينية والفناجين على الطاولة الصغيرة، وكانت هي ترتدي تنورة الصلاة الطويلة وغطاء الرأس الأبيض.

"أليست ابنتك من عمر حفيدتي سمية.. ثلاثة عشرة سنة ولم

تبلغ بعد!".. وراحت تتفحص علا بنظرات سريعة غير راضية عن مظهرها "طالعة على عماتها. لا تشبهك". بدا الانزعاج على ابنتي المراهقة. أنا أيضا إنزعجت لتنويهها ببشرة ابنتي الأقرب إلى السمرة عندما شبهتها بعماتها، فعلا لم تأخذ عني البشرة البيضاء، وربما هذا في صالحها وأفضل لها، كي لا تلفت إليها الأنظار مبكرا وتتعرض لعيون الخاطبات ورقابة الرجال. جمال أقل في مدينتي يعني فرصة أكبر للفتاة لتحقيق ذاتها قبل أن يتم صيدها كحيوان جميل لمجرد العرض.

عمتي منحازة بشدة للبشرة البيضاء. زوجت أبناءها الثلاثة بنساء شقراوات ملونات العيون، لينجبن لها أحفادا بنفس المقاييس، ولتمعن هي في ممارسة عقدة التفوق على من حولها. تتباهى بنسلها بعد أن كلح لون جلدها من الكبر وبهت بريق بؤبؤي عينيها الشهلاوين. ورثت أنا منها مزيج اللون البني والأخضر في عيوني.

نوت العمة للصلاة. تبادلنا أنا وعلا، قبل أن تتسلل من الغرفة ضجرة، نظرة تؤكد على الاتفاق السرّي المسبق بيننا. لا أحد يعرف بخبر بلوغ ابنتي، لا أبوها ولا الأهل. سأؤخر إعلان بلوغها قدر الإمكان. كنت أصغر منها بسنة، عندما فرض عليّ والدي وأخوتي الحجاب. قالوا أن جسدي يشي بكوني إمرأة، ولن يسمحوا لي بالمرور في الحي سافرة. يومها حقدت علي جسدي، وعلى الدماء التي زفّت لي أمي معها أنني بلغت مبلغ النساء!. "صرت امرأة"..

قالت لي بالنيابة عن الجميع، وناولتني الإيشارب الذي إشترته لأغطي به رأسي، والجوارب البيضاء السميكة الطويلة التي غطت ساقيّ بعد أن نمتا بسرعة مثل جزع شجرة فستق. لم أعارض القرار. كان ذلك سيكلفني حرماني من المدرسة. تململت قليلا أمام أمي التي لم تكن لتتساهل في هذه الأوامر، على الرغم من رقتها وضعفها العاطفي أمامنا. أطعتها بعد أن أفرغت ما في قلبي من اعترضات. إن لم تنجح أمي في المهمة، فإن هناك في العائلة من كان سينفذها بحدة وصرامة!

سلمتْ عمتي منهية صلاتها وبدأت إبتهالاتها التي تحفظها عن ظهر قلب مبدلة الاسماء فقط. "يا رب ..إجعلها تقوم من ولادتها بالسلامة. ارسل لها الولد الصالح واجعله يحمل كبرتها".

مسّني صوتها وهي تشملني بالدعاء الطويل المهموس. تيار أعاد وصل عاطفتي بها. تتمتم بالدعاء فيكبر مثلث من الخشوع يجمعنا، أنا وهي والرب كنا في وحدة اتصال في تلك اللحظة. ارتجفتُ رغبة بالبكاء، أردت أن أضع رأسي فوق صدرها. وأحكي.

"هل تحدث المعجزات مع البشر العاديين ياعمتي"؟

رمقتني وهي تملص رأسها من غطاء الصلاة، وكان لسانها لا يزال يستكمل بقية دعاء.

"زوجي لم يقربني الشهر الماضي، كان مسافرا أغلب الوقت" قلت بصوت مخنوق.. ثم توقفت عن الحكي وعيناي مركزتان على وجهها. كان فمها المشدود ما حوله بالتجاعيد لا يزال يردد تمتمة

خفيضة. "وممن سيكون الحمل روح عمتك.. من الجن؟"..قطعت التمتمة وأطلقت ردها بصوت رفيع زادت من حدته ليلائم نبرة التهكم. تناولت كأس الماء البارد من الصينية ورشفت منه رشفتين، ثم طلبت أن أرفع صوت المسلسل الآخر الذي كان قد بدأ هذه المرة على قناة أخرى.

"كل شيئ تمّ في الحلم" ..

وبدأ صوتي يغوص في قلبي.

"بعض النساء تتعب أعصابهن من الحمل فيهذين".

قالتها بحزم بنبرة تطلب إقفال النقاش. ثم امسكت بفنجان قهوتها الذي رشفت منه رشفة بصوت مرتفع كأنما لتزيح الموضوع الآخر الذي لا تريد سماعه. رفعت المجلة، وراحت تحركها مرة أخرى أمام وجهها.

"صلي. صلي. الله يهديك. هذه وساوس الشيطان".

نجلس على "الشوزلونة" عمتي وأنا، الشوزلونة التي أعدت تنجيدها قبل أيام فقط بقماش مزين بورود من ألوان الأزرق والبني والبرتقالي الخفيف، فأضاءت الورود قتامة الكراسي الأخرى ذات القماش الخملي البني اللون. تجلس العمة بموازاتي إلى اليسار مني، تتابع باهتمام أحداثا درامية لم أكن قادرة أنا على استيعاب تفاصيلها.

"سيعرف أنها خانته اليوم ياترى؟"..

سألت ولم تلتفت إليّ واستمرت تبحلق في الشاشة، مشدودة

إلى تفاصيل لم تكن تعنيني، فأنا أحمل في داخلي تفاصيل أكثر إثارة وغموضا، ولا تريد هي أن تعرف شيئا عنها.

منذ بدأت أشك بأمر الحمل غاب عني زوار الحلم الذين يتوافدون كل على إنفراد، يتقاسمون الليالي ويتقاسمونني. مع كل عاشق كنت أذوق فرحة مختلفة تذكرني ببداية علاقتي بأحمد. كانت أمه قد خطبتني، ثم جاء هو. كاد يلتهمني بعينيه وأنا أقدم له القهوة. وفي كل مرة يزورنا فيها، يكاد يطير بي، وأنا كذلك. وعدني بتحقيق كل أحلامي، خطيبي أحمد، الذي قلت له أنني حزينة لأنني لن أكمل دراستي الجامعية بسبب هذا الزواج، فرد بلسان ولهان "تكرم عينك بكرة بتدرسي وأنت في بيتي"..

كلام حلو يغري بتحقيق الأحلام ويبقى عند تلك التخوم.

"متى يعود زوجك عادة للغداء؟"..

إنتهزت الفاصل الإعلاني لتتحدث. تريد أن تتجاهل الموضوع تماما.

"في الثانية".. نظرت إلى الساعة المعلقة عاليا على الحائط فوجدتها تقترب من الواحدة ظهرا.

"زوجك رجل بيت.. قصر بشيء؟"..

"لا. البراد مليئ بالخضار واللحم، واشترى لنا الدش لنتابع كل محطات العالم. و..!".

"ديري بالك عليه إذن وبطلي تخريف". تلبّست جسدها حالة الوعظ وهي تتلو عليّ ما تعرفه من وصايا لمصلحة الزوج، ولم يبد

عليها أنها التقطت نبرة التهكم في كلامي. أنهت وصاياها وصوّبت وجهها باتجاه التلفزيون مرة أخرى.

صمت ولم أقل لها أنه صار مملا، وأننا لم نعد نتحدث بغير احتياجات البيت. وأنني أشك أحيانا بكوني أحفظ ملامحه، لأننا لم نعد نتبادل النظرات. وإنني أصحو صباحا فأتساءل هل بات قربي على الفراش حقا!

لم أقل لها أنه يتكهرب كلما أثرت معه فكرة إعادة إمتحان البكالوريا لأدرس الأدب العربي. لو أخبرتها، قد تكرر تعليقه "ثم ماذا؟ ستصبحين أديبة؟".. يقولها فأسكت، لأن المواجهة تعني خروجي من هذا البيت. المكان الذي لا بديل له سوى بيت أحد الأشقاء.

عمتي منشغلة بمسلسلات التلفزيون ولا تشعر بابنة أخيها التي تجلس بمحاذاتها وتحبس رغبة حادة في الصراخ وفي أن تتحدث عن نفسها بصوت عال. لم أعد أحتمل أن أحكي عن الآخرين فقط، الأبناء والأقارب، وشخصيات المسلسلات التلفزيونية. أريد أن أحكي عني يا عمتي، لا عن الأشياء والأغراض التي يجب أن نتسوقها ونطبخها ونعدها للمؤونة. أحمد لا يريد أن يسمعني، يريد أن يراني فقط. يدخل ويخرج، ويكتفي بأنه يراني في هذا البيت الذي اشتراه في منطقة راقية. "شغلي ماشي وأولادي ناجحين في دراستهم وزوجتي بنت عيلة. ماذا أريد أكثر من ذلك؟". يردد هذه الجملة وهو يقلب كفه على الوجهين ويختمها بالتأكيد على أن

"هذا كله من رضى الله ورضى الوالدين" .

يراني بنت عائلة محترمة ويكتفي بامرأة تخشب تمثالها عند هذا الحد . أحمد فقد الإحساس بي ، بزوجة تريد أن تحكي عن نفسها ، لا عن عائلتها في الماضي والحاضر . هل سيحتفظ برأيه عني لو علم بأمر العشاق الخفيين؟ هل سيلطمني على وجهي لو اعترفت له بمدى البهجة التي أعيشها مع حبيب وهمي في دنيا أحلامي؟ . . هل سيصدق أن الجنين في بطني قد يكون ابن واحد منهم . . لا ابنه هو؟ . .هل سيظل عند كلامه ويصفني بابنة العائلة المحترمة !

همّت عمتي بالنهوض في حركة توحي بنيتها الرحيل ، استوقفتها "ابقي وتغدّي معنا اليوم ، أحمد سيحضر مشاوي جاهزة للغداء" . . قلت وأنا أرفع صينية القهوة التي أسندتها على بطني مكملة "إحتفالا بالخبر السعيد !" . . صدرت عني قهقهة حنجرة مذبوحة ، فرمقتني باستياء وهي تعتذر لارتباطها على الغداء مع بيت ابنها –حيث زوجته صاحبة العيون الزرق– .

* * *

ارتدت البالطو الرمادي المصنوع من قماش التركال ، وراحت تعقد الغطاء الأسود على رأسها مغطية ذقنها وأسفل مساحة الفم ، فغابت التجاعيد التي عادة ما تتعمق أثناء الحديث . تغير شكل حجاب عمتي بعد أن غادرت الحي الذي تزوجت فيه بحلب القديمة . فبعد سكناها بالحي الجديد نسبيا ، لم تعد ترتدي البالطو الأسود ، ولا راحت تغطي رأسها بـ (البرانيل) السوداء اللون الأشبه بغطاء

رأس الراهبات . لكن أفكارها تحت ذلك الرأس بقيت كما هي ، في الزمنين .

"الله يرضي عليك ، الكلام الذي سمعته منك لا أريده أن يتكرر . هون حفرنا وهون طمرنا" . . قالت وهي تنقل نظرها بيني وبين الأزرار المدورة للبالطو ، محاولة إدخالها في فتحات الجهة المقابلة . فتهيأ لي أنها تخبئ سري تحت ذلك البالطو .

"لكنك كثيرا ما قلت يا عمتي أن أمّون حبلت من الجن !" . .

بصوت خفيض ولهجة غاضبة قالت قبل أن تفتح الباب وتخرج من البيت :

" هديك أموّن الجدبة (**) مو بنت عيلة محترمة متلك . ونحن في عيلتنا لا في جدبان ولا من عاشر الجان" ! .

لندن 1997

(*) المدينة" تنطق بتسكين الميم وهي مركز المدينة التجاري

(**) الجدبة : المجذوبة أو المجنونة

فنجان شاي مع مسز روبنسون

رسمت السيناريو في ذهني، وكنت أسترجع المشهد المتخيل عدة مرات. كيف ستفتح لي الباب فأرتمي في حضنك، وقد تنفلت الحرقة من طاقتي على التحكم بها، فأشهق، ثم سأحكي لك عن الحادثة. أو ربما في سيناريو بديل، يجب أن أتماسك وأسرد تفاصيل الحادثة أولا، ثم أبكي ذلك البكاء المؤجل في حلقي، منذ أكثر من ساعة.

كان يجب أن أتخيل التفاصيل القادمة للقائنا قبل وصولي إلى البيت، لأنها هي التي سندتني من السقوط في الطريق العام. حبست دمعتي كي لا أستثير شفقة المارة في الطريق، أو ألفت انتباه ركاب الحافلة بعد الصدمة التي تلقيتها.

تخيلت كيف سأدخل إلى البيت بعد أن أضغط على زر الجرس،

"لن أفتح بالمفتاح" قلت لنفسي، ولن أضغط طويلا على زر الجرس، كي لا أثير فزعك. وعندما تفتح، ستراني أغطي خدي الأيمن بكفي، وسأبدأ في قص الحكاية التي جرحت كبريائي مساء اليوم. سأقول لك بعد أن أهدأ إنني ما كنت قادرة على ترك نصف وجهي المصاب مكشوفا للعيان، مثل عورة. صحيح أنني كنت ضحية للعنف في الشارع، لكنك تعرفني جيدا وتعرف كم أكره التصرف بسيكولوجية الضحية.

تذكر عندما لجأنا إلى هذا البلد هربا من قمعين، إرهاب السلطة وإرهاب الأصوليين وتذكر اليوم الذي قدمنا فيه للجوء هنا؟ يومها تحدثت بقوة مع الموظف البريطاني المكلف بملفنا، قلت له: "أنا وزوجي وابنتي لن نبقى هنا بعد زوال الأسباب التي تهدد حياتنا بالخطر. نحن لا نحلم ببلادكم كجنة بديلة، بل ملجأ يمنحنا الحياة الآمنة إلى حين". لم يبد عليك الارتياح من ردودي وانتقدتني بعد أن خرجنا، إنني خاطبت الموظف البريطاني كما لو أن وجودنا في بلاده منّة، لا طلبا للأمان.

"كان يجب أن تكون نبرة صوتك أخف حدة وأنت تتحدثين إليه". قلت من دون أن تنظر في وجهي ونحن نسير باتجاه محطة القطار القريبة من وزارة الداخلية في منطقة كرويدن.

انزعجت أنا من الهواء البارد ومن تحاملك عليّ، ورددت بنبرتي إياها التي لم تعجبك:

"لكن موظف دائرة الهجرة استجوبنا استجواب المجرمين

المتسللين إلى حدود بلاده". تصمت عندما لا يروق لك كلامي، تتركني أحكي وأنفعل، وتلتزم أنت الصمت، تكبّراً. يغضبني صمتك في لحظة مفتوحة على الحوار، فأبدو في حضرة تجاهلك امرأة ثرثارة.

على أية حال سيناريو اليوم باحتمالاته المتعددة، لم ينجح، فعندما ضغطت على جرس الباب وقلبي يدق توجسا من اللحظة التالية التي ستصدمك وتجعلك تشاركني الحالة المؤجلة: الكراهية في المجتمع الغريب وكيف حدث ما لم نتوقعه، هذا الذي هربنا منه في بلاد قست علينا كثيرا في السنوات الأخيرة؟ حدث قد يجعلنا نعيد التفكير بفكرة المنفى والأمان، إن هو تكرر معنا. إلا أنك عندما واجهتني كنت تحمل بكلتا يديك كأس نبيذ وسيجارة. انشغلت الكفان عن أي فعل آخر، كأن تقرر أن تحضنني مطمئنا إياي ماسحا بيدك على رأسي. في الأصل، لم تكن أنت الذي فتحت لي الباب، فتحت أنا بمفتاحي لأنك لم تسمع رنين الجرس. كنت وصديقاك الآخران تتناقشون بصوت عال في القضية الوطنية، جلوسا في شرفة الشقة المطلة على منحدر جميل في حي هامستيد. لا بد أنك لمحت طيفي ينسحب بسرعة من الصالة، فلحقت بي. لم تسألني عن سرّ خدي الأيمن الذي استرخت عليه كفي. "ما بك؟" وأردفت بتعليق آخر قبل أن تسمع إجابتي "لم أتمكن من إحضار البنت، انشغلت بضيوفي، هل تذهبين أنت؟".

هكذا إذن رششت الملح على الألم ليستعر أكثر بعدم انتباهك

لحالتي، وكنت لحظتها أجلس على حافة السرير واجمة من صفعة الأسئلة الباردة، على كلا الخدين هذه المرة. ثم خمنت متسائلا "هل هو ضرسك"؟

"لا.. تعرضت للعنف في الشارع".

لا تزال يداك منشغلتين بما تحمل، وطالت مساحة الرماد المحروق من السيجارة فتحركت صوب النافذة ونفضتها في الهواء الخارجي. كأنك لم تستوعب الحدث، أم أنك استوعبته وكنت تحلله منطقيا يا أستاذ الفلسفة عندما سرحت قليلا!

سألتني عن مواصفات المرأة المعتدية وإن كانت معروفة لديّ، وما هو دافعها. تحولت إلى محقق شرطة وكنت لحظتها احتاج إلى صدر حبيب.

بجهامتك وشعرك الذي غزاه شيب مبكر، تطل عليّ مثل تمثال مهيب، فأشعر بقزامة جسدي فوق حافة السرير. كائن قزم ينتظر لفتة من الشفقة والحنّو. تنظر إلي من علٍ وتدقق عن بعد بآثار ارتطام خدي بالجدار، الذي لولا أني حميته بكفي.. و..

باخت الحكاية وانفلش السيناريو الذي كان سيخفف عني وقع الصدمة / الإهانة، لو أنه تمّ كما تمنيت. قبل ساعة وأثناء سيري في شارع مزدحم اقتربت مني امرأة ضخمة الجثة، لاحظت توجهها السريع نحوي قبل وصولها بعدة أمتار، خانني ذكائي واستبعدت أية نية سيئة، لكنها فاجأتني بدفعة من كتفها الممتلئة، ورمت بجسدي النحيل ناحية الجدار الخاص بأحد المحلات، فعلت ذلك وهي تصرخ

بهستيرية "أذهبي إلى الجحيم". ولولا أنني حميت وجهي بكفي لتعرض رأسي لما هو أخطر.

لم أرو لك الحادثة كما اشتهيت أن تروى، فقد حوّلت أنت التفاصيل إلى مجرد إجابات على أسئلة: كيف ومتى، ولماذا تعتقدين أنه موقف عنصري؟

لم تكن في جلسة حوار فكري أيها السياسي اللاجئ، كنت في غرفة النوم مع امرأتك التي لم تصح بعد من هول الصدمة! إن لم تتعمد المرأة المعتدية ما فعلته، كانت توقفت بعد شهقة الألم وبعد أن تجمع المارة حولي لمساعدتي. لكنها أكملت السير منتصرة. لماذا أنا؟.. هذا ما أردت أن تقوله لي بتهكم. حسنا ربما كان الاعتداء ردة فعل سريعة على أحداث العنف التي شهدتها مدينة مانشستر قبل أسابيع بين شباب آسيويين وآخرين من البيض. ربما أن بشرتي السمراء استفزت تلك المرأة، وهنا يصنفون الأفراد حسب لون بشرتهم: أبيض أوروبي، أبيض غير أوروبي، وأبيض من أصول أخرى (حدد). أسود إفريقي، أسود كاريبي، أو أسود من أصول أخرى (حدد).

هكذا تتكرر الأسئلة في الاستمارات لتطال كل الألوان، فإلى أي الألوان أنتمي أنا في الشارع؟ إلى سمرة شمال إفريقية، إلى سمرة عربية، أم أن عليّ أن أكون أكثر تحديدا كما يطلبون؟

هل تراه كان عنفا مجانيا من النوع الذي يحدث كل يوم: عجوز يضرب في بيته من قبل مراهقين، وعجوز أخرى تسرق في الطريق

بعد أن رماها أحدهم أرضا ليسلبها مبلغ تقاعدها الرسمي الذي تسلمته للتو من مركز البريد ! . ربما كانت المرأة المعتدية عصابية ، وكنت أنا ضحيتها ، وربما كانت هناك دوافع أخرى لفعلتها ! . لم تكن اللحظة مفتوحة للاحتمالات وأنا أتألم وألجأ إليك . كانت لحظة لا تحتمل أكثر من التعاطف .

برد الغضب في داخلي ولكنه لم يهدأ . وأنت ، يداك مشغولتان بسيجارة وكأس نبيذ . والصديقان ينتظران على الشرفة في أمسية صيفية قلّ أن تحدث في ليالي مدينة لندن . هل هي غلطتي أنني تعرضت للأذى في الوقت الخطأ ، وهل كنت ستتصرف بحساسية أكبر لو كنت وحيدا في البيت ، لو لم يكن الجو صحوا ودافئا بعض الشيئ !

* * *

بدأ المطر بالنث فمنح زجاج الحافلة صبغة انعكاس المرايا . تتداخل المشاهد المضيئة من داخل وخارج الباص مع مشاهد من مسيرة عمري : الحب ، الزواج ، النشاط السياسي لكلينا ، الملاحقة ، قرار مغادرة البلاد بعد تهديدات الاغتيال التي وصلتنا ، انتقالا إلى هنا . ثم متابعتي لدراسة الهندسة الإلكترونية ، وابنتي التي اتركها عند جليسة أطفال حين يكون أبوها خارج البيت . عملي في أوقات الفراغ في المقاهي وتوزيع المنشورات الدعائية الخاصة بمطاعم البيتزا والسوبر ماركت ، مقابل أجر زهيد يدعم مصاريفنا . كم دارت معي ابنتنا نادية ولم تكن تجاوزت الرابعة من عمرها ، تسابقني لتضع

أوراق الإعلانات الملونة في فتحات الأبواب المخصصة للبريد . يحول كلانا التعب إلى لعب ونضحك ، فيخف تأنيب الضمير بداخلي لأني أشغل طفلتي معي في تحصيل لقمة العيش .

تمر المشاهد أمامي بسرعة وأنا أحدق إلى يميني ، إلى زجاج النافذة المغبش قليلا برطوبة مطر أنهى صحو يوم صيفي في لندن ، أم تراها غبشة عينيّ وقد تسربت رطوبة دمع جهدت أن أتحكم فيه ! . . كتمت الدمع بألم لأنني لا أريد شفقة عامة من حولي ، من أشخاص منهكين بعد يوم عمل طويل مغموس بالتفاصيل المرهقة .

أمسك الدمع في محجريهما وأقول لنفسي لماذا لا أتذكر اللحظات السعيدة ، مثل نجاحي في الجامعة البريطانية الذي جلب لي عرضين للعمل بشروط ممتازة . لماذا لم تبد مبتهجا مثلي عندما قرأت عليك رسالة شركة الهواتف ، تلك التي أبدت حماسا للبحث الذي قدمته في الماجستير عن تكنولوجيا الاتصالات ، الرسالة التي جلبت لي فرصة عمل بامتيازات لا تقاوم !

"مبروك" . . قلتها على مضض . كأنك استكثرت تفوقي في البلد الغريب ، كأنك غضبت من رفيقة درب لم تواسك في وحدتك وتمنح نفسها خالصة للمنفى . هل هذا هو سرّ وجومك قبل قليل ؟ ارتحت لصفعة أعادت التوازن إلى صورتي في ذهنك وكما يجب ان تبقى : "زوجة سياسي منفيّ ، غريبة في بلد غريب ، وليست لاجئة تتمتع بحق النجاح والثناء ، بمفردها ؟ رفيقة درب ليس مهما أن يحمل تقديرها في كل شيء درجات جيدة .PLUS لم لا تحمل

تقدير MINUS في نشاطها الدراسي والعملي، درجات سلبية كي تتوازن شخصيتها مع واقع وجودها في المنفى! المنفى الذي لا تريد أن تتجاوزه يا زوجي العزيز".

عندما فتحت الباب ونزلت، لحقت بي وصحت من أعلى السلم: إلى أين أنت ذاهبة؟ وعرضت أن تذهب بنفسك لإحضار الطفلة من عند الجليسة. لم أجبك، خرجت من المبنى وأنا أفكر بمسز روبنسون، السيدة الإنجليزية التي نترك عندها صغيرتنا نادية حين يكون كلانا خارج البيت. قبل ساعات عدت أنت لتلحق بموعدك مع الصديقين وتجاهلت حقيقة أن هذه السيدة دقيقة في مواعيدها وترفض أن يترك الأطفال عندها إلى ما بعد الساعة السادسة. امرأة إنجليزية بامتياز، موسوسة بالانضباط. سأضطر لمواجهة تقريعها الذي تصدره بصوتها الرفيع وهي تفتح لي الباب، زامة شفتيها الرفيعتين فتنكشف خطوط التجاعيد التي بدأت تكثر حولهما.

لكن أحزر ماذا حصل؟ صرخت المرأة عندما رأتني قائلة "يا إلهي من فعل بك هذا؟". انفرطت دموعي للمرة الأولى هذا اليوم، ونست مسز روبنسون تأنيبي لأن الطفلة غفت في الداخل. أمسكت بكفي طويلا بين يديها وهي تربت عليهما، بعد أن أجلستني على أريكة كانت فاخرة يوما وبهت لونها مع الزمن. راحت تواسيني وأنا أحدق في وجهها محاولة اكتشافها من جديد، أهي ذاتها المرأة التي كنا نشبهها بالمسز تاتشر محيلين إلى تسريحة شعرها، وإلى حزمها الذي لا يقبل المهادنة؟

توجهت إلى المطبخ وأحضرت كمّادة من القماش القطني مبلولة بمياه باردة وضعتها فوق خدي المتورم. وقالت:

"يجب أن نسجل محضرا عند الشرطة غدا. الوقت تأخر الآن على ذلك. لا يمكن أن يمر فعل تلك المرأة الشريرة من دون عقاب. أما الآن يا عزيزتي، فاسترخي قليلا، وسأعدّ لك A Nice Cup Of Tea أنا متأكدة أن الشاي سيعيد الدفء إلى كفيّك الباردتين".

لندن 2002

حكايات من بيته

- 1 -

حين كانت قامته تنتصب في صحن الدار، رافعا رأسه باتجاه شبابيك الغرف، وعيناه على أصص الزرع الغافية فوق أطرافها، فإنه كان يملك اليقين أن النهار لن يطلع على أهل البيت من دون صياحه.

كان الجد هو الساعة المنبهة للعائلة في صباحات كل الفصول، ينكشهم بصوته الجهور الأشبه بعصى تلط أجسادا إستسلمت للذة الرقاد في لحظاته الأخيرة.

"لن يفز أحد من فراشه قبل أن تقيس الشمس نصف مساحة الحوش".

يوجه كلامه للجدة شاكيا ومعقبا على تأفف صدر عن أحبال صوتية طال إسترخاؤها داخل الحجرات، او افترش أصحابها الحوش في ليالي الصيف هربا من حرارة الداخل. لكن الجدة تمضي

بجسدها الصغير في أنحاء البيت العربي، غاضة النظر عن مشهد يتكرر أمامها كل صباح. تتابع الرجل الذي راحت صحته تتراجع ولم يفقد بعد حيوية نشاطه الصباحي. ينزل بهمة ديك بهي، بضع درجات، إلى الحديقة المنخفضة قليلا عن صحن الدار، يزور شجرات الفستق والرمان والتين، يثرثر بكلام سريع، يدغم الكلمات ومع ذلك تستوعبها، معبرا عن إحتجاجه على محاولات تمت لقطم الثمار قبل أوانها. يلمّها من على الأرض كدليل جرم، ويقترب من حافة السور مادا يده بها. ولن يتراجع قبل أن تمنحه الجدة نظرة شاهدة وتجيبه متململة من شكوى يومية: "أولاد ابنك.. من غيرهم؟"...

يساعده طوله الفارع على الوصول لأغلب الأغصان، أو يستعين بعصى خصصت لهذا الدور، فيزيل ما تيبس من ثمر، ويمسح ما إتسخ. يفرح عند إطلالة أول ثمرة نضجت، فيقطفها ويصعد باتجاه الدار ليلقّم من استيقظ بعضا من طعمها الممزوج بندى الصباح وبخشخشة تنفسه الصادرة عن مرض الربو.

"أمُ منير"..

يرددها منغمة مركزا على الكلمة الأولى، مناديا الجدة المنشغلة بإعداد الفطور، لتذوق فستقة طازجة أزاح عنها قشرها الأحمر الرقيق أو تينة نزّ عسلها دلالة على نضجها. نداؤه كان ابتهاجا بمحصول يديه، نداء لن يتكرر إيقاعه إلا نادرا بقية النهار، إذ سيعلو نزق الصوت مع ارتفاع سمت الشمس، فيستعجل طعاما طال

مكوثه على النار، أو يصفق بيديه -كي لا يقطع تمتمة بدأها- نداء لمصلين تأخروا في وضوئهم ووقف ينتظر أن يؤمهم للصلاة من فوق سجادته.

في مساءات الصيف، كانت الصلاة تتم في الحوش، صحن الدار التي تتوسطها شجرة توت تعملقت وشمخت، وتمددت جذورها حتى شكلت تشققات مرتفعة في الأرض المبلطة. في تلك المساءات، يخشع الهواء أمام ترتيله لآيات قرآنية قصيرة، وتوشك شجرة التوت أن تسجد مع الجمع، عندما يهمي بقامته للركوع والسجود.

حالتان ما كان يلح فيهما على اللحاق بالصلاة. النساء الشابات، كي لا يحرج طبيعتهن الفسيولوجية المانعة للعبادة أحيانا، والخال الكبير، الذي يتركه لقراءات "أفسدت دينه ولم تفسد أخلاقه". هكذا كان يردد، مسترجعا ظروف عوز أجبرته على اقتلاع الابن المجتهد من المدرسة مبكرا كي يساعد في رأب الصدع الذي تعرض له الدكان الصغير، وبالتالي معيشة الأسرة الكبيرة. وهناك في معمل عتيد، وصل كلام غريب لرأس الابن، تدور جلّ قضاياه حول إستغلال الناس تحت مبرر حاجتهم للقمة العيش.

متى كان الابن البكر يجد الوقت لتعلم هذه اللغة الجديدة ويومه يبدأ مبكرا بين ضجيج آلات النسج وينتهي قرب المغرب حيث تبدأ مراجعة دروس البكالوريا التي سيتقدم لها من البيت؟ يهمي منهكا متعبا فوق كتابه، فيقترب أحد الأبوين ليستل ما بين يديه ويمدد الجسد المرشح لإنهاك آخر في صباح مقبل. تطفئ فانوس النفط بعدها أنفاس

أكثر حرقة من اللهب على البكر، المشتت ما بين كدّ وعشق.

لسنوات طويلة، استمر الجد يحضر بنفسه حاجيات البيت من اللحم والخضار من سوق الهال، مبكرا، لا ينتظر حلحلة كسل أبنائه، أو تعاليهم على حمل أغراض قد تمس ثيابا مكوية ونظيفة لربما شوشت على إعجاب بنات أبو هاغوب، الجار الأرمني الذي إعتاد وعائلته الجلوس صباحا أمام البيت لاحتساء القهوة واستضافة معارف أرمن آخرين. ينزل الجد درجات من الطريق العام نحو منحدر البيت الذي يقع فوق سفح التل، منهكا، تفحّ أنفاسه الطالعة من رئة تعبة وقلب راح يصدر إنذاره للجسد الفارع. يتوقف لحظة ليريح القلب والرئة. وقد يحييه أبو هاغوب إن صدفه بلغة تؤنث المذكر "يعطيكي العافية أبو منير". لكن أبا منير، لا يقوى لحظتها إلا على الغمغمة، فيفهم الجار الأرمني من حركة شراشيب الطربوش الأحمر، أن الجد يرد له التحية قبل أن يحمل الأغراض مرة أخرى، ويقترب من الباب الحديدي الأسود يدفعه بأقصى ما تملكه قدمه الضخمة في تلك اللحظة من قوة خائرة.

ينطلق صرير الباب كنداء عاجل إلى الجدة، فتسرع مثل دجاجة فزعة لاستقبال سيد البيت: "فرحت أنت وأمك بخلفة الذكور"! تقولها بتهكم وهي تلحقه بكأس ماء أو بشراب برتقال محلى مخزّن منذ فصل الشتاء!..

- 2 -

لم يتوقع أي من الجدين، أن تأتي أخطر المشاكل من الابن الأكبر، الأحنّ والأكثر خلقا.

بدأ الأمر عندما طرق مجهولون الباب بشدة فجر أحد الأيام. تتذكر الجدة المرة الأولى جيدا "كنت أنهيت صلاة الفجر مع أبو منير وسبقني هو إلى النوم. تخلفت قليلا لأسبّح الخالق، وقبل أن أعود إلى الفراش سمعت طرقات سريعة على الباب. تعوذت منها".

كانوا كثرا ومسلحين، انتشروا في أنحاء البيت يقلبون الفرش، يخرجون الأوراق والكتب، ويفزعون أهل البيت الهاجعين. وانجلى غموض الحادثة في اليوم التالي، الابن الأكبر ملاحق سياسيا، والبلاد، كرة تتداولها أقدام العسكر بين إنقلاب وآخر.

صارت الزيارات الليلية طقسا يتكرر مع تنوع في التفتيش الموجه إلى عيون أذبلها النوم وأرواح ظللها الفزع، زيارات أمنية وتفنن في الاقتحام، فيوم يتسلق رجلان من الأمن سطح البيت ويفاجئا من صدف أن افترش المكان في الليالي الحارة، ويوم يباغت آخرون الدار في الصباح المبكر.

لكنه أجاد التخفي. وظل هكذا لسنوات طويلة.

أسئلة كثيرة وقفت في حلوق الأهل تخشى الخروج فيتأكد السرّ، والمرات القليلة التي تسمح برؤيته، كانت من السرعة والاختصار بما لا يتيح شرحا أو تفسيرا. وقت بالكاد يكفي لضمة صدر وسماع لهاث القلق. عيونهم الزائغة، تخوفا وحبا، سألت

عينيه الثابتتين الواثقتين، فما إنعكس فيها غير بريق يصدر عن متيم بفكرة.

مرة فمرة، تحولت الحيرة إلى سؤال منطوق، واضح ومباشر، ألقاه الجد في وجه ابنه حين إلتقيا خلسة.

"يقول الناس أنكم كفرة". قالها العجوز بلهاث تزايد عما قبل. واستجمع قوة تنفسه وجأشه بارتباك وتابع: "صحيح يا ابني؟"

سقط السؤال الصريح على صدر الابن بثقل كيس رمل. كيف يلخص للأب البسيط، محاضر جلسات ونقاشات التهمت أياما وليال طوال. وهل يمكن أن يقرب بين مساري حياة لا يتشابهان فيها بغير الصدق؟ نعم الصدق. "هل تصدقني يا أبي"؟ أخرج الجملة التي كان يبحث عنها كي تكون أرضية مشتركة صالحة للحديث، بين أب يتلقى المسلمات ويعيد إلقاءها على من حوله، وشاب من صلبه يسعى للتغيير في كل شيء.

"تصدقني يا أبي"؟ كرر السؤال بتوسل يقارب التمني فما كان ليجرح الأب الطيب.

"لم تكذب مرّة عليّ". عندما قالها، استحضر في قلبه ابنه الذي يعرف، فاطمأن. ما عاد يهمه أن يسمع بقية الإجابة. لكنه سمع الابن يقول "نحن ضد الظلم، سواء تم باسم الإله، باسم الوحدة، أو باسم أي شيئ آخر". مسحت العبارة حبات العرق من فوق جبين الأب، وعاد الحاجبان المنعقدان إلى إستطالتهما المرتاحة.

- 3 -

تغيرات كثيرة طرأت على حياة الأسرة في ستينات القرن العشرين، إلا أنها ظلت هامشية لا تشوش على القضية الأساسية. زيارات الغرباء لم تتوقف، تباعدت، تاركة خلفها في الوقت نفسه، ذعرا خفيا في قلوب الأهل والمعارف، إن صدف والتقوا به، أو سمعوا بعض أخباره، كانتقاله إلى بيروت بعد زواجه، ليتحول من رجل ملاحق إلى أسرة ملاحقة.

ستطغى هذه الأخبار لسنوات على تفاصيل البيت الكبير أكثر من غيرها. ربما شوشت عليها مرة حادثة تخص الجدة، فقد طرحت قرارا مفاجئا وحازما، وكان قرارها المستقل الأول في حياة زوجية اقتربت من خمس وثلاثين سنة.

"سأذهب للحج!"

القرار واضح، تفوح منه رائحة التشبث العنيد والتحريض القادم من مكان بعيد. خمن الجد أن ابنه شجع أمه على هذه الخطوة عندما زارته في بيروت، فعادت تحمل معها بذرة التمرد. ولم يكن ليرفض إصرارها. اكتفى بأن علق: "حقها. فالحج فريضة". قالها وصمت كمدا، كان يداري غصّة سعى لأن يخفيها في الصدر. عمرٌ مرّ على زواجهما ولم تتح لهما فيها زيارة مكة معا. كانت المعوقات في البداية مادية، ثم جاءت تحذيرات الأطباء مشككة بصمود القلب المتعب أمام مشقة الطقوس. وهاهي أم منير، تقرر فك الارتباط مع حالته والذهاب بمفردها.

أيام قليلة على رحيلها ثم تكشفت معاناة الرجل الولهان. تعرّت جهامته وضؤلت كبرياؤه. فضحه غيابها أنه كان مستندا في كل خيلائه إلى جسدها الضئيل يلحق به في أنحاء الدار. امرأة تلبي الطلبات وتستمع إلى نزقه الثرثار، كأنها شعبه المستلب.

استنشق رائحة الفراغ خلف غيابها الذي لم يسده ضجيج بيت يعج بالأحفاد، وببعض من تبقى مقيما من الأبناء. البيت موحش بدون أصداء كلماتها المقتصدة، وهي ترد النداء أو وهي تتلو الدعوات في أعقاب كل صلاة.

عندما أخبرتها العائلة أن أبا منير بكى شوقا والتياعا لغيابها، تضرجت بشرة وجهها من مفاجأة العمر، وحسمت شكاً عاش في سرها طويلا. يحبها، بل فضحته روحه لحظة دخولها البيت بعد أن عادت من مشقة سفر الحج الذي كان عبر الطريق البري. جلب لها كأس ماء لتبل ريقها، وحضّر إبريق الشاي بنفسه، ليرتشف بصحبتها الهنية مشروبا ساخنا يدفئ برودة بيت تسربت حرارته بغياب ربته الكبيرة.

ما عاد صوته يسمع نزقا ملحاحا إلا نادرا، وبدلا من ذلك، ترددت في أنحاء البيت أصداء صوت يدندن القدود الحلبية أو أغاني عبدالوهاب، مسرّبا من طيات صوته رسائل وله وبهجة، قفزت فوق مشاكل العائلة.

حال لم يدم طويلا، إذ سقط بعدها الجد صريع قلبه المنهك من عطب مبكر ووله متأخر.

- 4 -

تتفقد سني عمرها الثمانين، مستعيدة وجوها غابت من حولها لمختلف الأسباب.

البنت الكبرى رحلت مع زوجها إلى بلد خليجي، وتبعها اثنان من أشقائها.

تعرف أم منير سر غياب أليس، ابنة أبي هاغوب، هربت مع شاب مسلم تزوجته عن حب ويعيشان في حي بعيد بانتظار أن تهدأ غضبة أهلها الممانعين للزواج.

تملك تفسيرا لكل غياب من حولها سوى غيابه غير المفسر، ابنها البكر. ليس لديها من حيلة المعرفة سوى مايتيحه خيالها اللائب، أو ما يرويه خيال المشايخ وقارئي الطالع. مرة، قالت لها واحدة منهم وهي تدقق بالبن الجاف المنثور في فنجان القهوة: "أراه يجلس مهموما في مكان ضيق خانق، هو والله أعلم، مكان عند الحكومة"!.

لندن 1995

حكاية مكرورة

حذرت الجدة حفيدتها :

إياك والصقيع ياصغيرتي . . فإنه يفنيك .

وما الصقيع ياجدة غير الذي نجربه كل شتاء ؟ . . سألت الحفيدة ، فبادرتها العجوز :

هو كل عشق يهطل عليك لينهش من عظامك ويمتص الدفء من أطرافك ، فتخالينه دفئا ، وما هو كذلك .

ثم روت الجدة الحكاية :

عندما خنق الضجر قلب الأميرة ، نهار شتاء كئيب ، راحت تتلهى بالثلج المنهمر . قادت وصيفاتها إلى باحة القصر الواسع ، ورحن يجمعن لها النثار المتساقط . ثم بدأت الأميرة بصنع رجل ثلج . حددت ملامحه وقالت : أريد أميرا يشبهه .

التقطت أمنيتها ساحرة صدف أنها كانت تسترق السمع في الدغل المحيط بالقصر، فجعلت التمثال يتحرك ويحضن الأميرة التي لم تفق من دهشتها أربعين يوما.

كتبت الفتاة في يومياتها:

قبل أن أعرفه، كان كل شيء حولي محايدا. في الفضاء مجرد هواء يلامس البشرة بهدوء وملل. وكانت أمنية صغيرة تختبئ في نضارة وجهي: كف طيبة تزرع الزهور وتقتلع الحشائش المنسية من على جدران حدائقي. هذا ما أذكره قبل وصول رجل الجليد، الرجل الذي أهدى قلبي الصقيع ليلة رأس السنة.

وكتبت في تاريخ لاحق:

أي لعنة حلت بي منذ ذلك الشتاء!.. تمددت البرودة فوق كل ما ينبض دفئا في جسدي، إلا تلافيف هذه الذاكرة. كأنما الثلج حفظها من التلف فعادت نضرة مهيأة للاستعادة.

كنت قد بقيت وحيدة ليلتها. وحيدة مع الضجر. شبحه كان يشاركني مساحة الفراش والمكتب، وصالة المعيشة. بكيت ليلتها. عام جديد وأنا في وحشة الوحدة. لكن الضجر الذي سهر طويلا علي ركبتي، تفتّق ذهنه على فكرة طريفة للفرح. قادني إلي النافذة. "انظري".. قال وهو يشير إلى البياض المتساقط "السماء تسعل ثلجا.. فتعالي نجمعه في سلة، نجعل منه ورد الشتاء"..

سحبتني الفكرة من دمائي المتعكرة بالملل. خرجت أجمع الغبار الأبيض ألملم معه شتات روحي المتشائبة. تأبّى الورد أن يتخلق من

الثلج، وتفتتت بذور ورد مفترضة بين أصابعي.

ومما كتبته في رسالة إلى الرجل الذي تحب:

وكنت تحوّم في المكان بصمت- كأنما الصقيع جمّد حنجرتك- ترقب امرأة تلوب بين نافذتها وبين ساحة غاب عن عروضها طعم الإثارة. نثار الثلج راح يتوزع بغير انتظام فوق رأسك وملامحك، وكنت تحوّم في المكان، ببطء وصمت، تستمد من البرودة حيوية جديدة لم تتذوقها من قبل. رجل يتلذذ بحمام ثلجي. مشهد لا يثير اهتمام أي امرأة ولا يستدرجها إلى قلبه.

يومها، لكزني الضجر بكوعه، وأشار إليك بفضول.

"لا يشبهه"!.. قلت باستياء. لكنه أمسك بعجينة الثلج وراح يصوغ منها رجلا يشارك وحدتنا. تورطت معه بالفعل اللعبة. قلت لقلبي إنها مزحة وستنتهي مع بزوغ الشمس. رحنا نحدد العيون ونكشط مكانا للشفاه. وكنت أنت مستسلما كجثة، بشفاه بيضاء عكست ضياء القمر. هكذا بدوت لي وأنا ألمس وجها تخلّق للتو. لسعت كفاي حرقة الثلج وكان صوتك الوليد لحظتها يردد: "أبشرك بالدفء". أجبتك بصوت أثارته المفاجأة. "لتكن رجلي المنتظر إذن!"..

في تلك الليلة الباردة ولد كائن جديد من كلمة نطقتُ بها. دبت الروح في جنين أسميته الفرح، وانتظرت إكتماله بصبر الأنبياء.

مقطع آخر من الذاكرة:

– هل انتهينا فعلا؟..

– رحيل الشتاء لا يتوقف على إعلان من الأرصاد الجوية.

– إمنحيني فرصة أخرى..

مددت كفيَ الباردتين. "انظر لونهما الباهت. نفذ خزيني من الدماء الدافئة"..

ساطتني نظراتك الجامدة. هرعت إلى عصافير صغيرة معششة في شجرة البيت وخبأتها بين الأغصان، بعيدا عن لعنة البرودة التي تصيب ما تمسه عيناك.

لماذا تتفتت ورود لم تتخلق بعد، بسبب الصقيع، ولا يزال قلبي يقاوم صامدا أمام هجمته؟.

– فرصة أخرى..

فرصة لك.. لتمتص الدفء مني!. كلما لامست جلدي، زادت فرصتك لإذابة جليد يغلفك من غير أن تبذل أي محاولة لبث الدفء من قلبك. منذ عرفتك وأنا في برودة البلل.

روت الجدة منهية حكايتها:

وعندما نظرت الأميرة باتجاه رجل الثلج بعد ثلاثين يوما، لم تجده. كان قد ذاب حسبما وشت به بقعة الماء الأشبه بمستنقع صغير، حيث كان يقف طوال موسم الشتاء. ثلاثون يوما تخلصت فيه الأميرة من الضجر لكنها احتفظت بحكاية ستبقى ذكرياتها المؤلمة تعايشها زمنا طويلا.

كتبت الفتاة:

إنتهت حقبة الجليد في حياتي. هذا ما وشت به بقعة الماء حيث كنت تقف بجذعك الجليدي. جفت المياه سريعا حيث كنت تقف. تلاشيت أنت من المكان بينما كنت أنا أحلم بالشمس.

لندن 1994

لـولا تـلك الـرائـحـة التي دغـدغـت روحي هـذا الـصـبـاح، مـا كـنـا متورطين في هذا الموقف الحرج. تطلعت إلى ربيع المستسلم لإزعاج مباغت وشعرت بوخز في الضمير بسببه. كان ألقى باقتراحه قبل دقائق ثم استسلم للصمت تاركا إياي لفسحة الشرود وأنا أقود السيارة. قال أن أمامنا فرصة للعودة الى المنزل واختصار مأزق شبه مؤكد! لم أجب. كنت منساقة لحنين اجتاحني قبل قليل وشحن أعصابي بقوة افتقدتها منذ دخلت القوات المجاورة البلاد، فألزمتني وغيري الجلوس في البيوت، أسرى الخوف والغموض مما هو آت.

وها نحن سنصل إلى المكان بعد لحظات يرافقنا صمت ثقيل واحتمالات يصعب التكهن بها. ويرافقني أنا تحديدا، شعور بالشفقة على ارتجافة قلب أخي، خصوصا وأنني كنت أحس بمحاولته

التمويه على خوفه أمامي كي لا تمس رجولته، إلا أنه لم ينجح في إخفاء ما انعكس على وجهه، كأشد ما تكون المرآة صفاء.

"كان ينقصنا أن نتحرش بالعسكر!"..

قالها ولم ينظر ناحيتي بل ظل سارحا في الطريق أمامه، كأنه خشى أن يرى ردة فعل الغضب على وجهي. أجبت بضحكة قصيرة جهدت أن توحي بقوتي. "أنت مع أخت رجال فلا تقلق".. لكن ربيع انكمش في مقعده المجاور لي، وانكمش معه جسده المربوع ليبدو بعدها أصغر حجما.

بدأت الرغبة الجامحة لتنفيذ الفكرة، مع تلك الرائحة المتسربة من فنجان القهوة. كنت أحتسيها متابعة تحديقي في الفراغ، وهي سمة بدأت قبل عشرة أيام عندما أصبحت البلاد تحت سطوة حكم عسكري. وأثناء المسلسل اليومي لاسترجاع الذاكرة وصفحات من الماضي القريب، انفتح المشهد فجأة على وجوه الزملاء في الجريدة، وصوت عامل الكانتين يلبي الطلبات من قهوة وشاي ولفائف الجبنة والمارتديلا. وجدتني أنهض وأرتدي ملابسي منجذبة إلى تلك الرائحة المراوغة، قهوتي الصباحية في المكتب، وإلى زيارة المكان الذي أدمنت الذهاب إليه يوميا منذ أكثر من عشر سنوات. أكانت رائحة القهوة حقا هي التي دفعتني لتفقد التفاصيل التي انقطعت عنها فجأة، كأن الموت حلّ بي أو بها، أم أنها نتيجة تمرين النفس خلال الأيام الماضية على الشجاعة في اتخاذ هذا القرار؟. كان من المفترض أن أتوجه إلى مكتبي صبيحة الثاني من آب، لكن قوات

الجيش الجار سبقتني ودخلت البلاد في الساعات المبكرة من ذلك الصباح.

العسكر ما دخلوا بلدا إلا وعاثوا فيه فساداً".

تمتمت لأكسر برودة الصمت وحدة البرودة الصادرة عن تكييف وضع عند أقصى درجاته داخل السيارة ليقاوم حرارة نهار صيفي في شهر آب. لم يعلق رفيق الرحلة، تخيلت صوته الداخلي يقول: "لا فائدة من كل تنظيراتك، فنحن نقترب من المصيدة".

لم يتوقف جدلنا، أخي ربيع وأنا، منذ اتخذت قراري هذا الصباح الباكر. وما اقتنع بكل مبرراتي التي تتلخص بتحرير أوراق خاصة وكتب أثيرة كنت أضعها في خزانة مكتبي لحاجتي الدائمة لها. ومنذ خرجنا من البيت، ونحن نسلك الطريق الأطول، تفاديا لشوارع أقرب إلى مقصدنا بعد أن كثرت فيها حوادث إطلاق النار في اليومين الآخيرين، حسب النصيحة التي قدمها هو بلهجة حادة.

الذئب خرج على ليلى في الطريق الطويل لكن الآية تنقلب الآن ويصير الطريق القصير طريق الذئب".

لم تثر مداعبتي أية رغبة لدى ربيع في الابتسام، واكتفى معلقا: "الله يستر".

كنا نقترب من موقع الجريدة وقد يخرج علينا الذئب فعلا، وعندها سأندم كثيرا أنني ورطت معي شخصا أصر على مرافقتي، خوفا عليّ.

قلت ونحن ندخل الساحة الفارغة أمام المباني المخصصة لدور

الصحف والمجلات المحلية بمنطقة الشويخ الصناعية: "في السابق بالكاد كنت أجد فسحة فارغة لسيارتي، والآن، أنظر كيف أصطف الفراغ مادا لي لسانه!".

"فراغ!..لا تنسي الحواجز المسلحة التي تسيطر على هذا الفراغ".

لم يكد يكمل عبارته حتى انطلق صفير إنذار صادر عن اثنين من الجنود القلائل الذين يحرسون المنطقة. بينما وقفت دبابة خارج الساحة المبلطة فوق المنطقة الرملية المواجهة للطرق الرئيسية، مستعدة لصد عدو غير محدد الملامح!

رفع أحد الجنديين بندقيته إشارة أمر بالتوقف وتحذيرا لنا من الاقتراب، ثم طلب أن نغادر السيارة مستعينا بحركة سلاحه، فأثار فينا الفزع من أن تنطلق منه رصاصة بالخطأ.

"هذه لك؟"..

سأل الجندي وهو يدقق النظر في البطاقة الصادرة عن جمعية الصحافيين التي طلبها كإثبات هوية لعملي في هذه المنطقة.

"مؤكد أنها قبل عشر سنوات!". ابتسم منتشيا باكتشافه وهو يرفع حاجبيه بدهشة غير منتبه أنه يقارن الصورة بوجهي الشاحب الخالي من الماكياج، ثم عرضها على زميله الذي راح يقارن بين الصورة والأصل، فهز الثاني رأسه مؤيدا رفيقه بابتسامة بلهاء أشعرتني بتفاهة الموقف الذي وضعت أنفسنا فيه.

"كلنا نغادر أوطاننا شبابا يا أخي".

قلتها فلم يبتسم أحد. ثم طلب ربيع الإذن بالدخول من دون أية مقدمات.

التعليمات لا تسمح بالدخول إلى مباني الصحف".

قالها الجندي الفظ بتكشيرة كوّمت قسمات وجهه عند عينيه، وكانت حرارة الجو أقرب إلى ملمس الصفيح الساخن. أخرجت علبة المناديل الورقية ورحت أضغط بمنديل منها فوق جبيني كي يمتص العرق المتفصد. مدّ الفظ يده طالبا بعض المناديل.

"إشلون مستحملين هالبلد!"..

وراح ينشف عرقه الذي بلل وجهه ورقبته وتكشيرة رسمت مزيدا من التضاريس على وجهه. قربت علبة المناديل من الجندي الآخر، فسحب منها مناديل كثيرة لم يبد أنها للاستخدام الحالي فقط. سأل ربيع بضجر إن كنا سنقف تحت لهيب الشمس طويلا. كررت الطلب أنا هذه المرة مؤكدة أن ذلك من حقي كعاملة في المؤسسة وأن أوراقي الرسمية تثبت ذلك. بان التشوش على الجنديين في كيفية التصرف مع طلبنا، ومال الثاني على زميله موشوشا بما بدا أنه اقتراح. والتفت الفظ إلى جدار بعيد نسبيا، حيث مبنى صحيفة مجاورة، رافعا سلاحه كإشارة استنجاد.

التفتنا حيث وقف جندي ثالث بدا أنه أعلى رتبة منهما، محتميا بشريط من الظل بالكاد يرد عنه لهيب الحر في هذا اليوم الحار. اقترب بجسده النحيل الطويل قليلا، دافعا أمامه ظلا أصغر منه حجما، بينما خلا بخطوه من أية روح عسكرية.

"صحفية؟"

سأل بعد أن ألقى نظرة على بطاقتي. كان تعليقا لا يحتاج إلى رد فالإجابة مدونة في البطاقة التي بيده لذا لم أعلق كاظمة غضبي.

لماذا الدخول إلى المبنى إن كان العمل متوقفا؟

"بعض الأوراق والكتب"

"أوراق مثل ماذا" ؟

" كتاباتي. لو كنت مكاني هل كنت تخليت عنها"..

قلت العبارة بثقة، مموهة على توتري من أن يرفض كزميله السابق. ولم أفهم مغزى نظراته التي تحولت من القرف إلي الانكسار. "تفضلوا". اكتفى بكلمة تختصر القرار، الأمر الذي أغاظ الجندي الفظ على ما يبدو، ثم مضى بخطوه المتثاقل باتجاه شريطه الأقل شمسا.

في المكتب الموحش داخل المبنى الخالي من بشر أخرين غيرنا، لم يتركني ربيع أحمل كل اغراضي، مقترحا حمل أقل ما يمكن من الأشياء وأهمها فقط. أراد الخروج بسرعة من مكان سكنته الوحشة والحرارة بعد أن قطعت عنه طاقة أجهزة التكييف.

"قد يلحق بنا واحد منهم في أية لحظة".

كانت تلك التجربة الأولى لربيع في الإحتكاك مع القوات التي دخلت قبل عشرة أيام بحجة مساندة انقلاب محلي. احتقن وجهي بنوبة سعال سببها الغبار المتراكم على الأثاث والأرض أثناء محاولتي جمع أكبر تشكيلة ممكنة من ذاكرة المكان، خصوصا تلك المعلقة

على الجدران: قصيدة حب لنيرودا، كاريكاتير بحجم صفحة كاملة من الجريدة لناجي العلي الذي تلقى الرصاصة قبلنا بسنتين في لندن، تعليقات طريفة تركها أصدقاء زاروني مرة ولم أكن في المكتب، صور مشتركة مع بعض الزملاء في الصحيفة، وتفاصيل يصعب عدها بعد أن ملأت المكتب وأصبحت جزءا من تركيبته.

فتح ربيع إحدى النوافذ، فتسلل هواء ساخن بدّل شيئا من عطانة المكان المخنوق. ثم حمل الصندوق الكرتوني الأول بما تجّمع فيه من أغراض، وسبقني خارجا كي يضطرني للحاق به. تلكأت قليلا، لم يكن الخروج سهلا من مكان لا أعرف ماذا سيكون عليه مصيره المقبل، هل سيزول بغارة جوية -أيا كانت الجهة التي ستقصف- أم سيصمد ليكون شاهدا على محاولة اختطاف البلد؟..

عندما هممت بالخروج، لفتت انتباهي سماعة هاتف مرفوعة فوق أحد المكاتب، فأعدتها إلى مكانها بعد أن وضعتها على أذني متيقنة من صوت الصمت المتسرب منها. لماذا تركها الزميل مرفوعة، وما الذي اضطره إلى الانصراف السريع قبل أن ينهي المكالمة؟..وهل انتظر الطرف الآخر طويلا على الخط بعدها مستغربا غياب المتحدث على الطرف الآخر؟... فوق مكتب أخر لمحت بداية خبر بدأ أحد الزملاء كتابته على ورق أسمر من ذلك التي تطبع عليها الصحيفة "وصل إلى البلاد.." ولم يكتمل الخبر.

من الذي وصل وماذا حلّ به بعد أن حشر في الحدث المفاجئ!

* * *

عندما خرجت وجدت ربيع يجادل الجنديين في حمله الثقيل وقد بلل العرق غالبية جسمه من ثقل الحمولة والحرّ معا. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة بقليل، ارتفعت معها حدة حرارة الجو الكاوية، وبدا أن القمصان الكاكية، المبللة هي الأخرى بعرق شديد، لن تنفع معها أية مناديل ورقية إضافية. لاحت مني التفاتة استنجاد إلى خط الظل الرفيع المحاذي للمبنى.

"يا أخ!".

صحت بأعلى صوتي على الجندي المنزوي، فاقترب بخطوه المتثاقل من غير تردد.

لم يترك الجندي الهادئ لزميليه فرصة التدخل، وراح يقلب بنفسه محتويات الصندوق باهتمام أشكل عليّ أن يكون ارتيابا بأية ممنوعات من كتب سياسية قد لا توافق مزاج حكومته.

"كيف حصلت على هذا الكتاب.. صدر حديثا"..

قصد بكلامه مذكرات لويس عوض التي راح يتصفحها باهتمام كأنه يهم أن يبدأ بقراءتها بمتعة. لو أغمضت عيني في تلك اللحظة لتخيلت نفسي أستمع إلى واحد من الزملاء الذين تجمعني بهم اهتمامات مشتركة. ثم لاحظت أنه ران صمت على المكان وكان الباقون مجرد شهود ينتظرون حسم الموقف بيننا بمن فيهم ربيع. انتبهت إلى أن سؤالا قد طرح عليّ للتو ولم أجب عليه.

"أوصيت مسافرا إلى مصر أن يشتريه لي وأحضره لي قبل الـ.."

أسكتتني نظراته أن "لا تكملي"، فبلعت الكلمة قبل نطقها.

استمر هو في تقليب بقية الكتب، وكنت في تلك اللحظة مشوشة، أفكر باهتمامات الجندي الثقافية التي أربكت مشاعري الدائية نحوه بعد أن شملته وزملاءه، وأفكر بالشمس التي سترميني أرضا في أية لحظة إن بقينا على هذا الوقوف دقائق أطول. لاحظ ربيع شحوبي فأخرج زجاجة المياه من السيارة وسكب بعضا منها على رأسي.

"لو أنها باردة!"..

قال الفظ وتناولها منه من دون إستئذان، ثم رشف منها قطرات تسربت إلى رقبته فبدا عليه الانشراح. وقرر من غير أن يستأذننا أن يناولها لزميله الآخر الذي رش منها على وجهه وشعره وأطلق صيحة ابتهاج بعدها. ناول ربيع القنينة لثالثهم ليتمتع ببقية قليلة مما تبقى. سكب الشاب قطرات قليلة منها بللت فمه وأعادها لربيع شاكرا ثم بنبرة اعتذار "خلصنا على مائكم". ولم ينتظر ردود تفصح عن كرمنا إذا أشار إلى الأغراض التي تنتظر أن توضع في السيارة.

"قلت ستخرجين أشياء قليلة فقط!"..

ارتسمت إبتسامة خفيفة على وجهه، فكشفت عن نبرة قصد بها التبسط وأكدت على ملامح وسامة نبيلة بدت لي شبيهة بشخص أعرفه ولم تستحضره ذاكرتي لحظتها.

"لو فكرت أنت بمغادرة بلد تقيم فيه هل كنت ستخرج أقل منها؟"

انطفأت الوسامة فجأة ليحل معها وجوم لم أتمكن من تفسيره

لحظتها وغاب قليلا في الصمت، ثم أدار ظهره ومشى. لم أسمعه يأمرنا بالتحرك، ربما أوحى بذلك، صحوت على صوت إغلاق صندوق السيارة بعد أن حشر ربيع الأغراض داخله ووقف الجنديان الأخران ينتظران تحركنا. كدت أصيح على الآخر لأهديه مذكرات لويس عوض علها تدخل إلى قلبه السلوى في أوقات الغربة المملة. إلا أن صوتي خذلني وأنا أرقب ظهره بملابسه العسكرية المرقطة فأنتبه مرة أخرى لطبيعة وجوده في المكان. ابتعد بجسده النحيل مجرجرا ظله المتكوّم عند قدميه كما لو أنه سيتعثر به في أية لحظة، وتوجه إلى شريط ظل ملاصق للمبنى ضاق كثيرا عما كان عليه قبل ساعة، وما عاد يرد عنه صهد الحرارة في ذلك اليوم القائظ من شهر آب.

دمشق 1994

يحدث في المدينة سين

يمكن وصف المدينة سين بالمدينة الفصلية، فحين ينداح لهيب الهواء وتأخذ الشمس وضعا مائلا في السماء، ينفضّ عنها كثيرون: سماسرة، مقامرون، باعة مؤقتون، وأجساد لاذت بمياه البحر هربا من حرارة الصيف.

في منتصف واحدة من ليالي صيف تلك المدينة، كان أحد البولمانات على موعد لنقل مجموعة من الركاب إلى العاصمة حيث مقر إقامتهم الأساسي. وقبل بدء موعد الانطلاق بقليل، تكاثر المسافرون عند مكتب الشركة، مرددين السؤال نفسه:

"أين هو البولمان يا أخ؟. اقترب موعد الانطلاق"

لكن الأخ، وهو الموظف المناوب في الليل بمكتب الشركة، الجالس خلف طاولة ازدحمت بالأوراق والكتيبات السياحية،

بشرهم بدقة موعد الانطلاق وإن لم يصل الباص بعد رغم بقاء حوالي العشرين دقيقة على توقيته.

وصل جميع الركاب بأمتعتهم وأطفالهم. تناثروا على حجر الرصيف وقوفا وجلوسا، وكان الهواء لا يزال يحتفظ برطوبة ساخنة من بقايا شمس النهار. علت الهمهمات مع انتصاف الليل، ودخل بعض الركاب إلى المكتب وسألوا بغضب عن البولمان. قام الموظف بحركة مسرحية أخرى، أجرى خلالها مكالمة، ظهرت في إثرها ملامح الدهشة على وجهه:

"البولمان عطلان كما خبروني للتو!"..

إنفجرت القنبلة الخبرية وأحدثت هرجا بين من تصادف وجوده في الداخل. إنتقلت الشرارة بسرعة إلى الساحة فتكوم حشد آخر قرب الباب، بينما ضاع صوت الموظف في أصواتهم ضياع الإبرة في القشة. صاح بهم مهدئا "دقائق وسيكون هنا البولمان الآخر".

وصل البولمان الآخر بأسرع مما توقع الموظف نفسه. التفت المحتشدون إلى صاحب التصريح وصرخوا "هذا ليس بولمان، هذا باص هوب هوب"(*). امتنع الركاب عن الصعود إلى الباص، فقد كان شكله مزريا قياسا بالبولمانات السياحية. وتوزع الجمع ما بين مشاجر لموظف المكتب الذي أوشك على التسلل خارجا فمنع عن تحقيق هدفه، وركاب، في غالبيتهم من النساء والأطفال وكبار السن، آثروا أن يحتموا بكراسي الحافلة المتهالكة تخلصا من ثقل ساعات ما بعد منتصف الليل.

حاول الموظف أن يكون متشددا حاسما الموقف "لا بديل عن هذا الباص. فالآخر في التصليح".

مضت خمس وأربعون دقيقة على الموعد المقرر لانطلاق الباص، رافق فيها الإنهاك كثيرين، فبدأ عدد الصاعدين إلى الحافلة يرتفع، وترتفع معهم الهمهمات والدمدمات، بعضها مسموع، والآخر غير مفهوم.

"الكراسي هنا تكسر الظهر".

"لن نصل قبل ست ساعات، يعني ساعتين زيادة على الموعد المحدد".

"لننزل ونتحدى اللصوص".

"لن ننزل. الأولاد ناموا".

فجأة، صعد شاب أشقر بشعر يقترب قليلا من كتفيه ويرتدي بدلة جينز، وراح يتحدث بنبرة محرضة. "يا شباب نحن ضحية لعبة قذرة. وصاحب الشركة سيستفيد من فارق السعر". وعلت التساؤلات المحقونة بحرارة خانقة:

"ما الحل إذن؟"

"أن ننزل. ونرفض السفر إلا حسب الاتفاق المدون على البطاقة". ثم التفت الشاب الجديد إلى السائق الذي كان ينتظر حسم الموقف ليتحرك بحافلته "وأنت. أنت شريك في المؤامرة".

"الله وكيلك أصحاب المكتب اتصلوا بي قبل قليل". قالها سائق الحافلة المباغت، بمسكنة، لم يتضح معها إن كان متواطئا أو ضحية.

"نعم مؤامرة دنيئة لسرقة مبالغنا. يبدو أنه ملعوب يدبرونه كل

ليلة" . صاح صوت آخر بجرأة .

تكوّم الحشد في المقدمة مدججين بالاستفسارات والصراخ، ففتح السائق الباب المجاور له ونزل هاربا من لسعات غضبهم . وسرت عدوى الحماس إلى نفوس مزيد من الركاب، فقالت امرأة لزوجها "ألم أقل لك يجب أن نتخذ موقفا حازما؟" . فرد الزوج "شو بدك يانا نعمل؟" . ردت المرأة بعصبية وهي تواجه رجلها بموقفه المتخاذل"ما كان لازم نطلع بالأساس ونسايرهم باحتيالهم" .

تابع الشاب الثائر ذو البدلة الجينز صياحه ممعنا في تحريضه الذي صدر عن صوت بح قليلا بسبب الانفعال : "لننزل كلنا من الباص الآن، ونوقف عملية الاستغلال التي تجري بحقنا" .

"يا أخي لا أحد متوفر للرد علينا . . والحل ليس في أن نبقى على الرصيف !" .

"نتصل بصاحب المكتب نفسه" . قالها الشاب المحرض وهو يجوب الممر الضيق، باثا الحماسة في رفاق الرحلة . كان يرتدي بدلة جينز زرقاء اللون وقد تدلت خلف رقبته خصلات شعره الأشقر الأمر الذي سيزيد من تأثيره على الركاب الكلاسيكيين، وسنسميه منذ الآن بالشاب الأزرق .

داخل المكتب، رفض الموظف إعطاء الحشد رقم هاتف صاحب الشركة "لا أستطيع إزعاج الدكتور" . قالها كمن لقن الدرس جيدا، فتلقف من حوله الرد مثل كرة لعب .

"ويحمل لقب دكتور أيضا ! . تشرفنا" .

"يمكن دكتوراه في النصب والإحتيال" .

مدّ الأزرق يده إلي ياقة الموظف، فاصفر وجهه، وعندما لاحظ كثافة حضور الغاضبين استسلم للجموع الغاضبة وأدار قرص الهاتف . تناول الشاب الأزرق السماعة وراح يطلق التهديد خلف الآخر من دون توقف . تسمرت عند وجهه عيون الركاب، المتوزعة داخل المكتب وخارجه، وكان من السهل على أي متابع ملاحظة نظرات الإعجاب بهذا الشجاع الذي انبثق من بينهم .

انطلق صوت الشاب وهو يعيد السماعة بعنفوان الانتصار . "صمت ياشباب، الدكتور وعد بإرسال باص بولمان حالا" . سرت همهمة، تناقلت أصداءها المباني الغافية في رطوبة تلك الليلة الصيفية . شكك البعض بالكلام الذي قيل، واستسلم أخرون لرغبة تصديق الوعد الجديد .

مضت نصف ساعة أخرى ولم يلح خيال أي بديل . إقتربت سيارة ميكروباص من تلك التي تعمل على خطوط المدن ونزل سائقها يستفسر عن الحدث . سمع الحكاية من أكثر من شخص، فاستهجن فعلة زملاء المهنة . انتحى به أحد الركاب وسأله إن كان لديه مقعدين خاليين . هز رأسه بالإيجاب، فتنفس هذا الصعداء وذهب لينادي على زوجته ويجلب متاعه . عندما عاد، وجد راكبا آخر يصعد مع زوجة وولدين مراهقين وقد أوشك الميكروباص أن يتحرك . ضرب الباب بيده "ألم تعدني أنا . الآخر دفع لك أكثر !" . تحرك الميكروباص ترافقه شتائم الراكب المخذول، واحباط زوجته

المرهقة من متاعب الحمل.

عاود الحشد الاتصال بالدكتور ليسألوا عن سرّ تأخر البولمان، وكان جرس الهاتف يرن من دون مجيب. "هكذا إذن..ضحك علينا"!. وبدأ بعض الجمع يتوجه للهوب هوب كي يستريح فوق مقاعده معلنين استسلامهم للأمر الواقع. غضب الأزرق وعاود شحن الجمع البشري بجمله التحريضية من مثل: "ونترك هذا النصاب يتمتع باحتياله؟". ولم ينس أن يستخدم ذراعيه جيدا ليلفت انتباه عيون كانت تقاوم غبشة النعاس.

"يا أخي إجازتي إنتهت وغدا موعد التحاقي بالعمل". صاح راكب محبط. ثم تداخلت الآراء والاحتجاجات. حسمها قائد المجموعة بقوله "لنذهب إلى المخفر إذن، لا يمكن السكوت على هذا الاستغلال الفاضح".

وهناك أمام المخفر، نزل السائق مع اثنين آخرين يمثلان ركاب الباص. غابوا ربع ساعة وعادوا خائبين بعد أن أخبرهم الضابط المناوب أن القضية لا تدخل في اختصاص الشرطة وإنما وزارة المواصلات!.

سرّبت امرأة اقتراحا أقرب إلى الأمنية "لو كنا نعرف عنوان صاحب الشركة!". إلتقط الشاب الأزرق الفكرة وجدد تحريضه "نعم.. بيت الدكتور". ثم نظر بحنق إلى السائق "لنعد إلى الموظف المناوب".

أمام المكتب، إصطفت الحافلة المتهالكة مرة أخرى. نزلت المجموعة التي تكرست كقيادة يتقدمها الشاب الأزرق. اقتحموا

المكتب وسألوا الموظف عن العنوان. قرأ التهديد الجاد على وجوههم، فدونه لهم. لكن واحدا من القيادة شكك بصحة العنوان فاقترح كسبا للوقت "لنأخذه رهينة". صعد الموظف المناوب إلى الباص مخفورا بقيادة غير مهادنة.

كان الدكتور نائما في بيته، عندما وصلوا كالغارة الليلية، يحلم بحافلات كثيرة يستغل من خلالها مئات الركاب حتى نهاية موسم الصيف. استغرقه بعض الوقت كي يرتدي ملابس رسمية تليق بالمشكلة وبلقاء الجمع المحتشد. كان طويلا بظهر وأكتاف محنية قليلا، وشعر خفيف مشطه إلى الخلف ليخفي صلعة ظلت واضحة رغم ذلك. لمحه الركاب يكلم الموظف الذي يعمل عنده، فتحلقوا حوله وشرنقوه بأصواتهم المستنكرة.

البعيدون ما كانوا يسمعون أقواله الصادرة عن صوت خفيض، فراحوا يسألون الواقفين أمامهم عما يتفوه به من حجج.

"يحلف بأولاده أن البولمان الأصلي معطل".

ارتفع صوت الأزرق، مبحوحا خشنا، مهددا أن الأمر سيفضح في الصحافة ووزارة النقل وبين وكلاء السفر والسياحة. وكلما أوشك الدكتور أن يقنع الجموع بركوب باص الهوب هوب لاستحالة تهيئة البديل، أقلقت القيادة هدأتهم، وهي هدأة صادرة عن ذبول انتشر في الجسم بعد يوم حافل بدأ تحت أشعة شمس البحر وانتهى بحرارة (الخازوق)، كما أسماه ركاب تلك الرحلة. راح الحوار يأخذ شكل موجة بحر هائج، تارة في العلو، ثم في السفل.

لكن أمام الفضيحة المحتملة، بدأ الرجل يعرض تنازلات أخرى "أعيد لكم ثلاثين ليرة من أصل مائة عن كل بطاقة". قالها بنبرة الواثق من قبول الآخرين بالاقتراح.

"ياجماعة.. شيء أحسن من لا شيئ". تدخل صوت يائس، فصدرت بعض همهمات مؤيدة. إحتج الشاب الأزرق بصوت عال كالعادة رغم البحة التي أصابته "بسرعة تراجعتم! قلنا إما فارق المبلغ كاملا، أو باص بولمان درجة أولى". إلتقط أنفاسه ووزع نظراته المؤنبة على الحشد المنهك الذي بدا أقرب إلى الاستسلام وصاح مؤنبا "صحيح من قال أن الناس بحاجة لمن يضحك عليها".

بعد لغط كثير، تداخلت فيه الأصوات تداخل خيوط الصوف، طلب الدكتور من الشاب الأزرق أن ينتحي به جانبا، متحججا بصعوبة التفاهم مع أربعين شخصا، مرة واحدة.

"لنتناقش عند سيارتي. هناك أهدأ". وأشار إلى سيارة مرسيدس سوداء متوسطة العمر.

عن بعد، كانت الجموع ومعها السائق، تتابع حركة الاثنين، فتتسلل غمغمات غير مفهومة باستثناء مفردات قليلة انفلتت عاليا وبعض الإشارات الجسدية، كأن يحتد الشاب الأزرق، ترتفع ساعداه في الهواء، ينفعل الدكتور بحركة يشي بها جسده، ثم يعود ليضع يده على كتف الشاب، مهدئا إياه بود.

دارا حول السيارة المرسيدس عدة مرات. توقفا خلفها لدقائق، فغابت الصورة هذه المرة إضافة إلى الصوت مثيرة خيال الحشد عما

يمكن أن يجلبه لهم الشاب الأزرق من نصر.

وانتهى فصل ذلك اليوم على الشكل التالي:

عاد الرجلان، وهما في حالة تميل إلى الوفاق أكثر مما هي إلى الخصام. صاح الشاب بصوته أجش أستهلك كثيرا في تلك الليلة "يا إخوان يجب أن ننهي هذا الإشكال بأسرع وقت ممكن، يكاد الصبح يطلع". إلتقط أنفاسه قليلا، ألقى نظرة باتجاه الدكتور ثم باتجاه الجمهرة "الدكتور عنده متاعب في القلب كما فهمت، ولن نكون سببا في مصاب له، لا سمح الله".

حتى الآن، كان الجميع يستمع بوجوم منتظرين القول الفصل الذي سيتفوه به الشاب الأزرق. "الحل الوسط بيننا وبينه بعد كل المحاولات، أن يستعيد كل راكب جزءا من قيمة البطاقة الأصلية، ونغادر قبل لسعة الشمس". قالها بحسم وبسلطة من منح المسؤولية بالنيابة فأجاد استغلالها.

"هذا الذي طلع معك!". علق باحتجاج واحد من القيادة السابقة ومشى يدمدم بكلمات بعضها كان سبابًا.

"يا جماعة الرجل مريض بالقلب. ماذا سنستفيد إذا طبّ فجأة"؟

إنعكس تأثير صوت الأزرق على الدكتور، فحرك ملامح وجهه متسولا التعاطف وهو يرى بداية تفكك في الغضب المحتشد.

انفرط الجمع باتجاه باص "الهوب هوب" الذي شغله سائقه الحانق استعدادا للانطلاق. توزع كل على كرسيه، بصمت، وغير ممتلئ بالرضا. وحده الشاب الأزرق وقف في المقدمة وقفة منتصر، يردّ على

التعليقات الساخرة، منوها بفهلوته، وبالثلاثين ليرة التي في ذمته لكل راكب. "ليست لدي صرافة كافية، أقترح أن نصرف المبلغ في الإستراحة بأن ابتاع به لكل واحد سندويشة وشاي من هذا المبلغ".

"هذا هو المكسب الذى خرجت لنا به؟ كنا مشينا قبل ثلاث ساعات وأكلنا في بيوتنا". قالها صوت مخذول.

بدأت أصوات الركاب تخفت تدريجيا. غفا بعضهم قليلا، وحاول آخرون أن يتلاءموا مع كراس غير مريحة وحركة باص تخضّهم بتأثير محركه القديم. تناولوا الفطور في إستراحة طريق تتناسب رداءتها مع مستوى الحافلة. ورمى غالبيتهم بالسندويشة قرفا وتقززا.

في اليوم التالي وحتى إنتهاء الموسم السياحي الصيفي، كان الحادث ذاته يتكرر مع ركاب منتصف الليل، وتتكرر الحجة ذاتها "البولمان معطل". أحيانا، كان يظهر بين المسافرين شاب محرض، يشبه صاحبنا الأزرق، فيستعيد بعض المال أو يفشل. وفي أحيان أخرى، كان الركاب يستسلمون لنغص مفاجئ لا يجرّ الاحتجاج خلفه احتمالات التأخير والدخول في مواجهة مع الدكتور صاحب الشركة.

1993

(*) الهوب هوب تسمية شعبية سورية لحافلة قديمة رخيصة التعرفة.

الكاتبة

*** غالية قباني**

- كاتبة وصحفية سورية مقيمة فى لندن منذ عام ١٩٩٤.
- مهتمة بالسينما والأدب والأعلام وقضايا حقوق الإنسان.

*** صدر لها :**

- «حالنا وحال هذا العبد» ١٩٩٢ مجموعة قصصية - دار الينابيع - دمشق.
- «صباح امرأة» ٢٠٠٠ رواية - المركز الثقافى العربى بيروت- الدار البيضاء.
- «فنجان شاى مسز روبنسون» ٢٠٠٣ مجموعة قصصية دار ميرت - القاهرة.
- تعمل على الرواية الثانية التى ستكون بعنوان (فيديو وأكاذيب).

المحتوى

– إهـــــداء 5
– تقلبات الست سميحة 7
– تشاو روبرتا 17
– زهـــور آدم 41
– بورتريه للجلاد 57
– البريد يأتى مرتين 71
– المنفى عند درجة الصفر 81
– نهار الإنقلاب.. عصرا 91
– حلم بنت عيلة 107
– فنجان شاي مع مسز روبنسون 123
– حكايات من بيته 135
– حكاية مكرورة 147
– يوم من شهر آب 155
– يحدث في المدينة سين 167

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
آفاق عربية

106- نازك الملائكة (مختارات شعرية ونثرية).....
إعداد وتقديم :د. البراق عبد الهادى محبوبة

107- مختارات من شعر سميح القاسم.....
اختيار وتقديم: جابر بسيونى

108- مختارات من القصة اليمنية القصيرة.....
اختيار وتقديم: إبراهيم أبو طالب

109- رسائل أوديسيوس .....نورى الحراج

110- قبر بنافذة واحدة..... سعدية مفرّح

111- المقهى الأسبانى.....عائد خصباك

112- مديح الهرب.....خليل النعيمى

113- مجنون زينب.....جمعة اللامى

114- لا أخوات لى.....عناية جاير

115- تصحيح وضع .....أحمد زين